٢٢٣

HARLEQUIN

روايات احلام

أشياء لا تُباع

مارغريت مايو

www.elromancia.com

مرمورية

أشياء لا تُباع

- هل أنت سعيدة؟

عندما يصبح الحب خطأ، والمال لعنة، والشكّ حاجزاً بين الحبيبين، فماذا يبقى للسعادة؟

- سأكون سعيدة فقط لو وثق بي حبيبي!

هذا ما قد تجيب به آنا، ولكن لأن هذه الأمنية مستحيلة فقد رحلت بعد أن تخلى عنها أوليڤر بكل بساطة من أجل اتهامات لا أساس لها... وعندما أتى باحثاً عنها بدا لها أن شيئاً لم يتغير:

- ماذا عساني أفعل لتغفر لي؟ أأجثو على ركبتّي وأرجوك!

- لن يكون ذلك كافياً، لا شيء سيكفيني... ليس لديك فكرة عن الجراح التي حفرتها عميقاً في روحي، جراح لن تندمل ما دمت حية. لن أسامحك قطّ وأنا على قيد الحياة...

www.elronaiea.com
مكتبة روايات مصرية

روايات أحلام

مجلة قصصية أسبوعية تصدر عن شركة دار الفراشة
للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م
المدير المسؤول آمال سابا الهاشم

حقوق النشر والطباعة والتوزيع باللغة العربية محفوظة لشركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م. بترخيص خطي من Harlequin Enterprises II B.V

كل الحقوق محفوظة، بما فيها نسخ الكتاب بكامله أو جزء منه بأي شكل من الأشكال
تم نشر هذه الطبعة بالاتفاق مع شركة Harlequin Enterprises II B.V.
كل العلامات التجارية استعملت
بترخيص من شركة Harlequin Enterprises II B.V.
كل شخصيات هذه الرواية وهمية. أي شبه بين هذه الشخصيات وأشخاص حقيقيين أحياء كانوا أم أمواتاً هو محض صدفة

العنوان الأصلي لهذه الرواية باللغة الإنكليزية:

The Wife Seduction

First published in Great Britain 2000

Harlequin Mills & Boon Limited

© Margaret Mayo 2000

Translation © Dar El-Farasha- 2001

ISBN 9953 - 15 - 048 - 6

شركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م. طريق المطار - سنتر زعرور -
ص.ب: ١١/٨٢٥٤ هاتف/فاكس: ٤٥٠٩٥٠ - ١ - ٩٦١ - بيروت - لبنان
Email: dfarasha@cyberia.net.lb

أعزائي القراء

لأننا عوّدناكم دائماً على أجمل الروايات العاطفية... ولأننا نعرف أن قراءنا لا يرضون بأقل من الأفضل... ولأن هدفنا دوماً المحافظة على واحة حب تخفّف من وطأة الآلام والهموم في عالمنا... لهذا، اخترنا أن تكون هديتنا إلى قرائنا في بداية هذا القرن هي انضمامنا إلى أسرة هارلكوين Harlequin العالمية.

لماذا هذا الاختيار؟

لأن شركة Harlequin هي رائدة الروايات الرومانسية في العالم أجمع، وهي تتعاون مع أفضل الروائيات في هذا المجال، وتصدر شهرياً أكثر من ٧٠ عنواناً جديداً.

ما هي نتيجة هذا الاختيار؟

ستظل روايات أحلام على سابق عهدها من حيث اختيار القصة الشيقة والأسلوب الرفيع واللغة السليمة... والتغيير الذي ستلاحظونه هو في زيادة عدد الروايات شهرياً، وتنوع الموضوعات لتناسب جميع الأذواق، وسيكون لمشاركتكم باختيار المواضيع المفضلة لديكم وبأسماء الروائيات اللاتي أحببتموهن، الدور الأساسي.

بكل إخلاص
أسرة أحلام

www.elromancia.com

مارغريت مايو

ولدت «مارغريت مايو» في وسط إنكلترا الصناعيّ. وهي الآن تعيش في قرية في منطقة «ستافورد شاير» الريفية. امتهنت الكتابة بالصدفة، بعد أن حاولت كتابة قصّة صغيرة وهي تقارب الأربعين من عمرها. أما الآن، فقد أصبحت الكتابة تشكّل الجزء الأشد بهجة من حياتها وهي تجمع بين هوايتها في التصوير وبين أبحاثها.

١ ـ ضربة حب

ـ هل أنتِ سعيدة؟

اقتربت آنا من أوليڤر لتشعر بدفئه وأومأت برأسها. كانت تلك إحدى اللحظات الرومانسيّة الخيالية التي تستحيل حقيقة. مضى أسبوعان على تعارفهما وها هي الآن غارقة في الحبّ من رأسها حتى أخمص قدميها.

كانا على ظهر المركب في طريقهما إلى إنكلترا، وقد طلب منها الزواج، فشعرت بالفعل أنها أسعد فتاة في هذا العالم. هل من الضروريّ أن يسألها أوليڤر عمّا إذا كانت سعيدة؟ ألم يكن ذلك بادياً بشكل جليّ على وجهها المتلألىء، وعلى عينيها اللتين تحدّقان فيه بهيام؟ وعلى لمساتها وهمساتها له؟ لقد كان رائعاً، بسحره وجاذبيته، فلم تُرد قطّ أن تدعه يبتعد عنها.

كان لقاؤها به في تلك الرحلة، ومن ثم ظهوره على عتبة بابها بعد بضعة أيام، أمراً مُدهشاً تماماً، كأنها تشاهد فيلماً سينمائياً. ولم تكترث لكيفية عثوره عليها، بل اكتفت بأنّه فعل، فلم تتردّد قطّ في دعوته للدخول ومن ثم قبول دعواته للخروج.

إنّه حقاً جذّابٌ وخلاّبٌ إلى حدّ الجنون. إنّه الغريب المثالي بقامته الفارعة وبشرته الداكنة ووسامته وعينيه الذهبيّتين الرائعتين اللتين تُضفيان عليه جاذبية ساحقة.

لقد كانت رحلة لا تُنسى من «فيشغارد» إلى «روسلير». كان المركب يشقّ طريقه بصعوبة عبر الأمواج القويّة، وعندما ترنّحت آنا وكادت تقع

أمام «أوليڤر لانغفورد» في متجر الهدايا، التفّت ذراعاه بعفويّة وتلقائية حولها ليحول دون وقوعها. وما لبثت أن شعرت في اللحظة نفسها بتيّار كهربائيّ يمرّ عبر كلّ خليّة من جسدها، وأحسّت بتجاوب مباشر ومخيف معه لم تكن تتوقّعه.

تمتمت وهي تجهد للتكلّم بصعوبة.: «أنا آسفة».

بدا كأنّ الهواء من حولهما قد ازدادت كثافته، ممّا جعل التنفّس أمراً مستحيلاً؛ لكأنّ غمامة غشيت كلّ الحاضرين في المتجر لتعزلهما هي وهذا الغريب في هالة من الإثارة.

ـ لقد سُررتُ بذلك.

تناهى صوته أبحّاً كما لو أنّ أحاسيسه هو أيضاً قد تنبّهت واضطربت عند ملامستها، كما لو أنّه هو أيضاً لم يعد متنبّهاً لوجود أحدٍ من حولهما. لم يستطع أن يشيح بنظره عنها، فراحت عيناه تغوصان عميقاً في روحها بحثاً عن إجابات عن أسئلة لم تعلم أيّ شيء عنها.

ـ هل تودّين أن أرافقك إلى مقعدك؟

وبقيت عيناه مسمّرتين في عينيها. بدا كأنّه يلتهمها، ويبعث فيها حمّى من المشاعر لم يسبق أن عرفت لها مثيلاً من قبل.

كيف لرجل غريب أن يبعث فيها مثل تلك الأحاسيس؟ لم تجد لذلك أيّ تفسير منطقيّ، أنّى لرجل متّشح بالسواد أن يحدث في نفسها هذا الوقع الذي رمى بها في دوّامة من المشاعر المثيرة؟

لم تجد جواباً لأيٍّ من تلك الأسئلة.

تلوّت مبتعدة عنه بقوة قائلة: «أستطيع تدبّر أمري».

كانت نبرتها تنمّ عن كبرياء هادئة، متجاهلة النيران التي اشتعلت في عينيها الزمرديّتين، وما أحدثته في نفس الرجل الذي حال دون وقوعها.

عادت بهدوءٍ إلى مقعدها ولم تره ثانية إلى أن ظهر على عتبة باب الكوخ. لم تكن قد نسيته، بل استمرّت في التفكير فيه بشكل متواصل، فكانت صدمتها كبيرة عند رؤيته إلى حدّ بعث في نفسها الذعر. كان الأمر

كما لو أنّها استحضرته من ذهنها بمجرّد التفكير به.

لكنّ هذين الأسبوعين غمراها بفيض من السعادة التي لا تُنسى. لقد ذهبت إلى تلك المنطقة الجميلة في جنوبي إيرلندا لتنعم بالسلام والهدوء بعد أن ساءت أعمالها، إلاّ أنّها وجدت عوضاً عن ذلك الحبّ والإثارة اللذين يفوقان الخيال، الحبّ الذي توّجه أوليڤر بطلب يدها للزواج به.

ـ ما الذي تفكّرين فيه؟

مرّر أوليڤر إصبعه بلطف على أنف آنا الشامخ الجميل. أخيراً أنصفه القدر بعد طول انتظار. كانت آنا تمثّل صورة نقيضة لكلّ النساء الأخريات اللواتي عرفهنّ، بحيث أنّه لم يصدّق الحظ الجيّد الذي حالفه.

رفعت رأسها نحو رأسه وعيناها تبتسمان، وشعرها الأحمر الحريريّ يبرز جمال بشرتها النقيّة الجذّابة بحبيبات النمش المنتشرة عليها.

أقرّت آنا: «كنتُ أفكّر في لحظة لقاءنا، وفي السرعة التي تمّ بها كلّ شيء. فمنذ أسبوعين اثنين لم أكن أعرفك، والآن قد قبلتُ الزواج بك. هل جُننتُ أم ماذا؟».

ابتسم أوليڤر وهو يجيبها: «إن كنتِ قد جُننتِ فأنا أشاركك الجنون نفسه. فمنذ أسبوعين اثنين كنتُ قد قرّرت الابتعاد عن النساء كلّهنّ. أمّا أنتِ، فامرأة مميّزة جداً يا «آنا بايج»، هل تعلمين ذلك؟ أظنّ أنّك ساحرة متنكّرة ومتخفيّة في زيٍّ آخر، تمارسين سحركِ الفتّان عليّ. وأظنّ أنّ علينا الانتهاء من ترتيبات زفافنا ما إن نصل إلى البيت».

ـ ألا تعتقد أنّ علينا التروّي والانتظار قليلاً لنتأكّد؟

ـ أنا متأكّد. أريد أن أُمضي ما تبقّى من حياتي معكِ. أريد أن أنجب الأطفال منكِ. أريد... كلّ شيء. أريد حبّك وإخلاصك، وصداقتك والتزامك. هذا ما أنوي تقديمه لكِ. هل أطلب منكِ الكثير؟

حبس أنفاسه بانتظار جوابها. لكنه سرعان ما انفرجت أساريره حين ابتسمت آنا واقتربت منه تعانقه وهي تهمس له: «هذا ما أريده أنا أيضاً».

شعر أوليڤر بحبّها الصادق له ينبض في قلبها، فعانقها شاكراً القدر

على سعادته.

إنَّ الذعر هو الذي دفع به للّحاق بها بعد نزولهما من المركب. ففكرة عدم رؤيتها ثانية أسقمته، ولعن المؤتمر الذي أبعده عنها لثلاثة أيّام.

خطر له أنّه مجنون لأنّه لم يشعر بمثل هذا الانجذاب المميت نحو امرأة من قبل، وما انفكّ يتخيّلها مع رجل آخر. لم يصدّق أنّ امرأة بجمال آنا وتألّقها ليس لها حبيب.

لقد سيطر عليه الخوف وهو يقرع باب الكوخ الذي تقيم فيه. لذا، تحقّق حلمه حين اكتشف أنّها وحيدة ـ وحين أبدت القدر نفسه من السرور والإثارة عند رؤيته.

سألته: «متى تقترح أن نُتِمَّ الزواج؟».

ـ في أوّل فرصة تسنح لنا.

أجابها وهو يملأ رئتيه من شذى عطرها الذي ينبّه أحاسيسه كلّما اقترب منها. كانت في الواقع تفقده صوابه باستمرار، حتى مجرّد التفكير فيها عندما يبتعد أحدهما عن الآخر، مهما تكن المدّة قصيرة، يكون كفيلاً بتنشيط أحاسيسه وإثارتها. كان في حالة دائمة من الإثارة.

ـ لا يمكنني المخاطرة في أن أدع أحداً آخر يخطفك منّي.

افترّ ثغرها عن ابتسامة عذبة واثقة: «ما من سبيل إلى ذلك، فلقد سحرتني أنتَ أيضاً».

إلاّ أنّه لم ينوِ المجازفة، بل سيسعى لإتمام زفافهما بأسرع ما يمكنه. لم يسبق له من قَبل أن التقى بامرأة اطمأنّ معها لرغبته في تمضية ما تبقّى من حياته معها. كانت آنا مختلفة، عرف ذلك عن طريق حدسه، ولم يرد إضاعة المزيد من الوقت الثمين.

ما أن نزلا عن متن المركب حتى بدأ يخطّط لاصطحابها إلى منزله في كامبريدج للقاء والده، وأمل في أن تمضي آنا الليلة هناك قبل أن تعود إلى شقّتها في لندن. أرعبته الفكرة القائلة «بعيد عن العين، بعيد عن القلب»، لكنّه تقبّل على مضض عودتها إلى لندن لحاجتها إلى ترتيب أمورها قبل أن

تنتقل للعيش معه.

إنَّ الأسبوعين الحميمين اللذين أمضياهما في إيرلندا جعلاه يدرك مدى تعلّقه بها لأنّها أصبحت جزءاً منه، بحيث أنَّ الحياة بعيداً عنها باتت مستحيلة.

لكنَّ ردّة الفعل التي أبداها والده هي ما لم يتوقّعه.

ـ أبي، أريد أن أعرّفك «بآنا بايج»، الفتاة التي سأتزوّجها.

ابتسمت آنا له بابتهاج. لم يكن فارع القامة كابنه بل أكثر ضخامة، لكنَّ له العينين المفترستين نفسيهما وقد غطى رأسه شعر أبيض كثيف مسرّح إلى الوراء كالفرس.

مدّت يدها لتصافحه فأصابتها الدهشة حين لم يأتِ بأيّ حركة. في المقابل، راحت عيناه تفترسانها بشراسة وإدانة ورفض واضح لها.

لم تكن لديها أيّ فكرة عن السبب. وبعد أن جالت عيناه عليها من أعلى إلى أسفل بازدراء بادٍ على شفتيه الملتويتيْن كما لو أنّها لا تستحقّ حتى التواجد معه في الغرفة نفسها، عاد لينظر إلى ابنه قائلاً: «هل فقدتَ صوابك يا أوليڤر؟».

شعرت بأوليڤر ينقبض وراحت يدها تبحث عن يده لتمسكها متسائلة عمّا يحدث هنا.

أجاب أوليڤر بحزم: «لا، يا أبي، لم أفعل. فأنا أحبّ آنا».

ـ الحبّ! بالله عليك! منذ متى تعرفها؟

ـ منذ أسبوعين.

شدَّ بيده على يد آنا مطمئناً، كأنّما يقول لها بصمت إنَّ غضب والده وانفعاله لا يدعوان للخوف أو القلق. وتابع قائلاً لأبيه:

ـ لكنَّ الوقت ليس له أيّ شأنٍ هنا. أنا أحبّ آنا، وليس مهمّاً ما تقول، يا أبي. سأتزوّج بها ما إن أنتهي من إتمام إجراءات الزفاف. لا أرى سبباً يدعوني للانتظار.

ـ أنتَ غبيّ.

تحوّل لون وجه العجوز إلى الأحمر القاني من شدّة الحنق. فتكلّمت آنا أخيراً: «إن كان غبياً، فأنا كذلك أيضاً. أنا أبادل أوليڤر المشاعر نفسها، وأريد الزواج به من دون تأخير. يؤسفني أن تكون غاضباً سيّد «لانغفورد»، لكنّي أؤكّد لكَ أنّ...».

قاطع آنا أحد مستخدمي السيّد إدوارد ليقول له إنّه مطلوب على الهاتف لحالة طارئة بسبب مشكلة وقعت في أحد المواقع.

أمرَ «إدوارد» أوليڤر بحزم: «تولَّ أنتَ هذا الأمر. الربّ وحده يعلم كم من المشاكل واجهنا أثناء غيابك».

نظر أوليڤر إلى آنا مقطّباً فعلمت أنّه يخشى أن يتركها وحدها، طمأنته بابتسامة واثقة قائلةً: «لا بأس».

كان قد أخبرها من قبل أنّ والده لم يعد يعمل في شركة تطوير الممتلكات خاصته بسبب مشاكل صحيّة تتعلق بالقلب، وترك ابنه يتولى زمام الأعمال كلّها. لذلك، كان من الصواب أن يهتمّ أوليڤر الآن بإدارة الأمور والسهر على حسن سيرها.

ما أن خرج أوليڤر من الغرفة حتى استشاط والده غيظاً سائلاً آنا: «هل لديك أدنى فكرة عن السبب الذي دفع بأوليڤر لطلب يدك للزواج؟».

دفعها سؤاله إلى رفع حاجبيها دهشةً، لكنّها أبتْ أن تسمح له بإحراجها، فأجابته: «لأنّه يحبّني، يا سيّد «لانغفورد»، كما أحبّه أنا. هل تلمّح إلى وجود سببٍ آخر؟».

ـ أنا لا ألمّح أو أقترح، بل أنا متأكّد من وجود سبب آخر، فهو مغرم بامرأة أخرى. يبدو أنّهما تشاجرا فقال لها أوليڤر إنّ كلّ شيء انتهى بينهما. لكنّه قال ذلك مرّات عديدة من قبل، وكانا يعودان لبعضهما دائماً.

سألته آنا بحدّة: «هل يصدف أن يكون اسمها «ميلاني»؟».

ارتفع حاجبا «إدوارد لانغفورد» دهشة: «لقد أخبركِ عنها؟».

أحنت آنا رأسها: «من الطبيعي أن يفعل. فلم يخف أحدنا شيئاً عن الآخر. على الزواج الناجح أن يتأسّس على الثقة والتفاهم، وقد كنّا

منفتحيْن تماماً في التكلّم عن ماضينا».

كانت آنا قد أخبرت أوليڤر عن «توني»، الرجل الذي كان خطيبها في ما مضى. وأخبرها هو بأمر «ميلاني»، الفتاة التي أراد والده أن يزوّجه بها.

ـ لقد أمسكتِ به في فترة ضعفه.

ـ لا أظنُّ ذلك. قال لي أوليڤر إنّ كلّ شيء انتهى إلى الأبد.

قال لها أيضاً إنّه سعيد لتخلّصه منها. فهي ابنة صديق مقرّب من «إدوارد»، وهي أيضاً ابنة والده بالمعمودية. وقد اكتشف أوليڤر أنّها كانت تتباهى أمام أصدقائها بكونه صفقة مربحة بالنسبة إليها، تستطيع أن تحصل منه على ما تريد من المال كلّما رغبت في بذلك.

ـ عانى ابني من عدد كافٍ من الطفيليّين ومطاردي الثروات بحيث أستطيع التعرّف إليهن عن بعد ميل.

نظر «إدوارد لانغفورد» إلى آنا بعينين يتطاير الشرر منهما ممّا بعث الخوف في نفسها، وأضاف: «أنت تفوقين بعضهن ذكاءً بقدر قليل. اقتربتِ منه وهو في حالة من الضعف البالغ. لكنّ ماله هو مالي أنا. لقد صعد سلّم النجاح في شركتي أنا، وكنت حريصاً على أن يتكبّد مشقة الارتقاء والنجاح، لكنّ كلّ قرش يدخل إلى جيبه آتٍ مني بطريقة غير مباشرة. ولن أسمح لإحدى النساء الفاجرات الوقحات أن تأتي وتسلبه ماله».

حدّقت آنا في الرجل العجوز ببرود، وهي تجهد للحفاظ على بريق الثقة في عينيها ثم قالت: «عندما التقيت «يا أوليڤر»، سيّد «لانغفورد»، لم أعلم أنّه من عائلة ثريّة، أو حتى أنّه يملك المال. لقد أُغرمتُ «بأوليڤر» الرجل. كان من المحتمل أن يكون عاطلاً عن العمل، لم يكن الأمر ليثير اهتمامي أو ليدفعني إلى التراجع. فالمال لا يهمّني إلاّ بالقدر الذي أتمكّن فيه من ستر نفسي ببعض الثياب وملء معدتي ببعض الطعام. وما دمتُ أملكُ هذا القدر فقط، أكون في غاية السعادة».

لم تؤثّر كلماتها في نفس الرجل العجوز الذي طفق يحدّق فيها بعدائية

بالغة، قائلاً: «تتوقعين مني أن أصدّقَ كلامكِ، أليس كذلك؟ حسنٌ، دعيني أقول لك، يا آنسة، أنّ ما من امرأة على وجه هذه الأرض لا تتأثر بالمال».

عبر الغرفة نحو طاولة المكتب والتقط دفتر شيكات مصرفية وراح يدوّن على أحدها، قبل أن ينتزعه ويمدّ يده به إلى آنا، قائلاً: «هاكِ، خذي هذا، ولكن ذلك النهاية لهذا الوضع المستحيل».

كان المبلغ كبيراً جداً، يكفي لإعالتها لما تبقى من حياتها، لكنّ آنا لم تكترث له. بل شعرت في الواقع بالإهانة جرّاء عرضه هذا. جُلّ ما كانت تبغيه هو الزواج بالرجل الذي تحبّ.

رمقته بازدراء واشتدّت كلّ مفاصلها وهي تقول: «لا أريد مالكَ، يا سيّد «لانغفورد». أرى أنّك لا تؤمن بالحب، لكنّي أفعل، وكذلك أوليفر، وكلّ ما نريده هو أن نكون معاً».

أمسكت آنا بالشيك ببطء، وشرعت تمزّقه إلى أجزاء صغيرة صغيرة قبل أن ترميها على الأرض مضيفة: «هذا ما تستطيع أن تفعله بمالك».

حدجها الرجل بعينين تقدحان شرراً، لكنّه حافظ على رباطة جأشه وبقي بعيداً عنها: «أنتِ فتاة صغيرة حمقاء. أنتِ تقترفين أكبر خطأ في حياتكِ».

ـ لا أظنّ ذلك. لكنّ رأيكَ يخصّكَ وحدكَ.

ـ إن كنتُ عاجزاً عن جعلك تتراجعين عمّا في بالكِ وتعزفين عن إتمام هذا الزواج المستحيل، فإني أحذّرك، إن أقدمتِ مرّة على أيّ شيء لإلحاق الأذى بابني، يا آنسة «بايج»، أيّ شيء على الإطلاق، سيكون عليكِ التعامل معي أنا شخصياً. لا تخطئي أبداً في التقدير.

عندما عاد أوليفر إلى الغرفة، كانت آنا وحدها، وقد وضعت الشيك الممزّق في حقيبتها لتتخلص منه لاحقاً.

قطب أوليفر حاجبيه وهو يسألها: «أين أبي؟».

لم ترد آنا أن تفسد عليه فرحته بإطلاعه على ما فعله والده، فأجابته بلا

مبالاة: «أظنّ أنّه وجد شيئاً آخر يقوم به».

ـ أنا آسف حقاً لأنّكِ لم تلقي منه الترحيب الذي تستحقّينه. حقاً لم أتوقّع قطّ أن يبدي ردّة الفعل تلك».

جذبها نحوه وشرعت عيناه تداعبان عينيها الخضراوين.

ـ ليس هذا بالأمر الهامّ، فأنتَ هو من سأتزوّج، وأنتَ هو من أحبّ.

ـ لنذهب إلى البيت، فلدينا الكثير لنقوم به.

لم تأسف آنا لمغادرتها منزل «ويستون»، بيت العائلة الكبير المرهب، المبني على أراض شاسعة في ضواحي كامبريدج.

كان أوليفر يسكن في منزل مستقل تابع لمنزل العائلة، لكي يبقى قريباً من والده عندما يحتاج إليه هذا الأخير، ولكي يتمكّن في الوقت عينه من التمتّع باستقلاليّته.

ـ أنا أحبّ المكان هنا، إنّه يعجبني.

شعرت آنا بالفرحة وهما يدخلان إلى المنزل، كان المكان واسعاً نوعاً ما لكنّه لا يشبه منزل العائلة، بل يطغى عليه جوّ دافىء مريح بغرفه الواسعة وأثاثه المريح. فسألته: «هل سنعيش هنا بعد زواجنا؟».

ـ نعم بالتأكيد. وهنا سنمضي الليلة أيضاً. دعيني أرشدكِ إلى غرفة نومك.

أبعدت آنا عن ذهنها الأحداث التي جرت عند لقائها السيّد «لانغفورد»، وأطلقت لسعادتها العنان لتنعم بكلّ لحظة تمضيها برفقة أوليفر الحبيب.

***

٢ ـ جسر الموت

كان يوماً رائعاً من أيّام الربيع، اكتظّت الكنيسة بالورود، الورود البيضاء بكلّ الأنواع التي يمكن تخيّلها، من الورد الجوريّ إلى الزنبق والقرنفل والسوسن. كما تدلّت الأشرطة الحريريّة البيضاء على الجدران وعلتْ الأقواس الممرّ الذي سارت عليه آنا متأبّطة ذراع والدها وهي تتّجه نحو المذبح تغمرها سعادة لم تعرف لها مثيلاً من قبل في حياتها.

حرص أوليڤر على أن يتمّ الزفاف في أفضل الظروف، فأولى عناية خاصة لأدقّ التفاصيل. كلّ ما كان عليها فعله هو اختيار ثوب زفافها وثوب وصيفتها، واهتمّ أوليڤر ووالداها بالباقي. كيف استطاعوا إنجاز كلّ ذلك في أسبوع واحد؟ هذا ما لم تعرفه آنا قط.

الفرق كان واضحاً بين الترحيب الذي لقيه أوليڤر من والديها، وبين الطريقة التي هدّدها بها «إدوارد لانغفورد». عمدت عن قصد إلى إغفال عدائيّته ونسيانها محدّثة نفسها بأنّ الوقت فقط كفيل بأن يحمل والد أوليڤر على تقبّلها، لكنّها لم تستطع منع نفسها من التفكير فيه أحياناً.

استدار أوليڤر عندما وصلت إليه آنا فسطعت عيناه ببريق الحبّ الذي لم يستعر بمثل هذه القوّة من قبل. قال لها بنعومة: «كم تبدين جميلة. وكأنّك إحدى آلهات الحبّ الأسطورية. أنا من أشدّ الرجال حظّاً في العالم».

همست: «أنا محظوظة أيضاً، أحبّك «أوليڤر لانغفورد»».

لم يحضر والده حفل الزفاف، لكنّ ذلك لم ينغّص على آنا يومها. في

الواقع، لو كان «إدوارد» موجوداً، لأقلقها ذلك وحال دون سعادتها. في المقابل، كلُّ شيء كان كاملاً ومثالياً.

بما أنّ أوليڤر كان مرتبطاً بمواعيد هامّة في العمل، فقد أجّلا شهر العسل، لكنّ آنا لم تنزعج قط من ذلك. كانت آنا في الواقع تشعر أنّهما في عسلٍ دائم منذ أن التقت به إلى الآن.

بدا أوليڤر سعيداً أيضاً، وكان يظهر ذلك في مناسبات مختلفة، وهو حتماً لم يكن توّاقاً إلى استعادة حبّه القديم الضائع.

ولم يستطع أخوها أن يحضر الزفاف بسبب ارتباطات في العمل في أوروبا، لكنّه عاد الآن وشعرت بسرور بالغ عندما أتى لزيارتها. لم يكن يبدو عليهما أنّهما شقيقان، فكريس يكبرها بخمس سنوات، وهو أشقر الشعر وليس أحمر مثل آنا، وعيناه بزرقة البحر. كان فارع القامة ووسيماً للغاية.

كان يدير شركة اعلانات، ويبدي حباً وتعلّقاً شديديْن بأخته الصغرى. قالت له عندما زارها: «يؤسفني أنّ أوليڤر ليس موجوداً هنا. أريدكَ حقاً أن تلتقي به. أدخل واجلس، فلدينا الكثير لنتحدّث عنه».

بدت على ملامح وجه كريس الجدية فجأة وهو يقول: «كنتُ أعلم أنّ أوليڤر لن يكون في المنزل. لهذا السبب اخترت أن آتي الآن، في الوقت الذي تكونين فيه وحيدة».

قطبت آنا حاجبيها حين تلاشى بعض من سعادتها ليحلّ محلّه شعور مفاجيء بالانزعاج.

ـ لماذا؟ ألستَ موافقاً؟ هل أتيتَ لتحذّرني بشأنه؟ هل اكتشفتَ شيئاً لا أعرفه؟.

تنهّد كريس وابتسم قليلاً بطريقة غريبة: «لا بالطبع أيّتها السخيفة، أريد أن أطلب منكِ خدمة، خدمة كبيرة».

ـ آه؟

كانت تلك اللحظة هي المنعطف الأساسيّ في مجرى الأحداث. فقد

جرت العادة على أن تطلب آنا من كريس إذ كانت طفلة العائلة المدلَّلة ولطالما كان لطيفاً وكريماً معها.

عضَّ على شفته السفلى وهو يهزّ يديه بتوتُّر قائلاً: «ما من طريقة سهلة لقول ذلك، أنا بحاجة إلى المال، يا آنا».

ـ ماذا؟

لم تعلم آنا قطّ أنَّ أخاها يعاني من أزمة مالية.

أعلن لها بمرارة: «أعمالي تمرّ بأزمة حرجة».

ثمّ عقّب بسرعة قبل أن تقول أيّ شيء: «لكن... أتوقّع صفقة كبيرة ستكون كفيلة بانتشالي من الأزمة وإعادة الأمور إلى نصابها. إنّها مجرّد أزمة عابرة، لكن... من دون مساعدة مالية، قد أغرق وأنتهي قبل ذلك».

هزّت آنا رأسها، آسفة لحال كريس ثم قالت بأسى: «لا أعلم كيف أستطيع مساعدتك، إلاّ إن كنتَ تعتقد أنَّ أوليڤر قد يفعل؟ في الواقع، أنا متأكدة من ذلك؛ فهو أكرم رجل عرفته في حياتي، أستطيع سؤاله عن ذلك».

كاد كريس ينقضّ عليها ليقاطعها: «لا! عليك ألاّ تقولي لزوجك أيّ شيء قط».

وحين بدا الذهول على آنا، راح يشرح لها بتأنّ وهدوء: «آترين، إنَّ الصفقة التي آمل الحصول عليها، والتي أنا متأكّد من الحصول عليها، هي مع شركة زوجك. وإذا علم بالأزمة التي أمرّ بها، فلن يتعامل معي قط بعدها. إلاّ إذا... كان يعلم من أكون؟ إن تكن الحال كذلك، فهذا يعني أنّي غرقتُ فعلاً».

أجابته وهي ترسم على ثغرها إحدى ابتساماتها المتلألئة: «هو يعلم أنّي أحبك بجنون، ويعلم أيضاً أنّكَ تعمل في مجال الإعلان. لكنّي لا أظنّ أنّي ذكرتُ له يوماً اسم شركتك».

بدا الهدوء على ملامحه وهو يأخذ نفساً عميقاً: «الحمد لله».

قالت له بهدوءٍ وتأمُّل: «بإمكاني إعطاؤك بعض المال، على ما أظنّ.

كم هو المبلغ الذي تحتاجه؟».

لكن ما إن علمتْ بالمبلغ الذي يحتاجه، والذي يفوق ما تملكه بكثير، حتى تأوّهت بيأس: «لا أملك هذا القدر من المال، هل حاولت طلبه من أبي أو أمي؟ أعتقد أنّهما يملكان الآن ما يمكّنهما...».

مرَّر أصابعه باضطراب في شعره قائلاً: «لا أستطيع، أنتِ تعلمين كم عارض والدي استقلالي في العمل، وكان يقول إنّي لا أملك القدرة على ذلك. إن أطلعته على أزمتي، فلن يبقى ليسمع نهاية القصة».

تأوّهت آنا: «هناك حلٌّ واحد ممكن. أوليڤر يودع بعض المال في حساب لي كلّ شهر، ولا أعلم السبب. لقد قلت له إنّي لستُ بحاجة إليه، وفيه ما يكفي. ورغم أنّي عاهدتُ نفسي على ألاّ ألمسه قطّ، لا أريده أن يظنّ أنّي قبلتُ الزواج به من أجل ماله».

لم تشأ آنا أن توضع في الخانة نفسها كميلاني، أو أن تقدّم لوالد أوليڤر الحجّة التي يبحث عنها.

برقت عينا كريس الزرقاوان بالأمل، وانحنى بشغف نحو أخته قائلاً: «آنا، أعدكِ بأنّكِ ستستردّين المبلغ. لكن يجب ألا يعلم أوليڤر بالأمر».

واستمرَّ بإعطاء الحجج المقنعة إلى أن استسلمت آنا في النهاية لمطلبه.

ولم يكن أحد ليعلم لو أنَّ «إدوارد لانغفورد» لم يرَ أخاها يغادر المنزل، ولم يره يعانقها على عتبة الباب..

مرَّت بضعة أيّام قبل أن يواجهها أوليڤر بالأمر. لم يعطها على العشاء أيّ فكرة عمّا ينوي التحدّث به، لكنّها ما إن نهضت لتنظيف المائدة حتى قال بنبرة لا تحتمل الرفض: «إجلسي ثانية».

حدَّقت آنا فيه بذهول لأنّه لم يسبق له أن تكلّم معها بهذا الأسلوب وهذه النبرة: «ما الخطب؟».

تجهَّم وجهه فجأة بشكل مخيف: «سمعتُ أنّك استقبلتِ زائراً منذ بضعة أيام، رجلاً. كنتُ أنتظر أن تكلّميني عنه، لكن بما أنّي أرى بوضوح

أنّك لن تفعلي، لذا أخشى أنّ عليّ سؤالكِ بإصرار عمّن يكون».

كانت نظرة الاتّهام تعلو عينيه وقد غلبت القسوة عليهما، فبدا في تلك اللحظة شبيهاً بوالده إلى حدّ بعيد.

ـ من قال لك؟

ـ في الواقع، إنّه والدي. ولا يهمّ من قال لي، فالمهمّ أنّك لم تخبريني بنفسكِ.

لربّما علمت بأنّ إدوارد سيكتشف الأمر. فهو على الأرجح يتجسّس عليها باستمرار، أو أنّ لديه من يقوم بتلك المهمة من أجله. فسألته بنبرة مدافعة: «وما الذي قاله والدكَ؟ أنّي أقيم علاقة عاطفية مع رجل آخر؟».

كان ذلك بالتحديد ما يرغب إدوارد في أن تفعله، يرغب بأيّ شيء لإنهاء زواجهما.

ـ أطلب منكِ أن توضحي لي من يكون. فمن المنطقي أن تطلعيني على الأمر لو كان ما جرى بريئاً.

أجابته وعيناها تقدحان شرراً: «لقد كان بريئاً في الواقع. إنه أخي».

كان ذلك جُلّ ما يبغي معرفته، وارتفع حاجباه الداكنان باستغراب: «كان أخاكِ؟ ولِمَ لم تقولي لي؟».

جعلها كلامه تبدو غبيّة، فأجابته وهي تهزّ كتفيها بلا مبالاة: «أعتقد أنّي نسيتُ أن أقول لك».

هزّ أوليفر رأسه غير مصدّق لما سمعه: «يأتي أخوك من السفر بعد أشهر من الغياب وتنسيْن؟ هل تظنّيني مغفّلاً؟ لكان ذلك أوّل ما أطلعتني عليه لو كان صحيحاً».

وقف أوليفر وأمسك بكتفيْ آنا بقبضة شديدة إلى حدّ آلمها فوقفت، ثم أضاف: «أريد الحقيقة، من كان الرجل؟ هل كان ذلك الحقير الذي كان يوماً خطيبكِ؟ هل عاد ليتجوّل في الجوار ثانية؟».

فأجابته: «توني؟ لم أره منذ أن افترقنا، وهذه هي الحقيقة. كان عليّ إبلاغك بزيارة أخي، أعلم ذلك، لكنّك لم تكن موجوداً عندما فكّرتُ في

الأمر، وعند عودتك... حسناً، كان لدينا أمور أخرى تشغل بالنا، أمور أكثر أهميّة من غيرتك المجنونة... أنا أحبّك أوليفر، إلى حدّ يجعل خيانتي لك أمراً مستحيلاً. لن أفعل ذلك بك قطّ، أعدكَ يا حبيبي».

تأوّه واقترب منها هامساً: «قلتُ لوالدي إنّه مخطىء. قلتُ له إنّك لستِ من هذا النوع، لكن... أوه آنا...».

وعجزت الكلمات عن التعبير عن مدى أسفه العميق لارتيابه بأمرها. لكنه عانقها مضيفاً: «يُستحسنُ بكِ أن تدعي أخاكِ إلى هنا ذات مساء».

وافقته آنا الرأي، وهي تعلم أنّها ستستمرّ في تأجيل ذلك إلى أن يحصل كريس على تلك الصفقة. لكنّ جدالهما أجّج نار الحب في قلبيهما فأمضيا ليلة حميمةً لم يعرفا مثيلاً لها منذ زواجهما.

بعد مضيّ نحو أسبوع، اتّصل بها كريس هاتفاً وكان متحمساً جداً: «حصلتُ على الصفقة يا آنا. هل يمكنكِ ملاقاتي؟ أريد أن أدعوكِ على الغداء للاحتفال».

في المساء نفسه، عاد أوليفر من العمل ووجهه متجهّمٌ، وعيناه قاسيتان مُدينتان، فعرفت آنا على الفور ما الذي سيقوله. ولم يخذلها: «أريد أن أعرف مع من تناولتِ طعام الغداء اليوم».

انقبضت أوصالها وهي تجيبه: «كيف علمت أنّي تناولتُ الغداء مع أحدهم؟».

وبما أنّ الهجوم في مثل هذه الحال أفضل بكثير من الدفاع، واصلت بنبرة قوية: «هل كنتَ تتجسّس عليّ؟ لم تعد تثق بي؟ إن كان هذا ما سأناله منكَ كلما خرجت من المنزل، فإني...».

تسلّل صوته عبر كلماتها: «من كان الرجل؟».

شعرت بالانزعاج ينسلُّ في عظامها: «في الواقع، كان كريس مرّة أخرى».

كان صوته يضجّ بالسخرية وعيناه تلمعان كحدّ السيف وهو يقول: «لا أصدّقكِ آنا».

بدأ ضغطها يرتفع، فردَّت عليه بحدَّة: «آسفة، لكنَّها الحقيقة».

ـ متى إذن كنتِ تنوين إبلاغي بالأمر؟ أم أنَّ ذلك يدخل ضمن مجموعة أسرارك؟ أجدني فجأة عاجزاً عن فهمكِ آنا. في الواقع، أشعر أنّي لا أعرفكِ البتّة.

تنهَّدت آنا عميقاً تنهيدة حزينة. بالرغم من أنَّ أخاها طلب منها أن تلتزم الصمت لفترة قصيرة، إلاّ أنّها علمت بأنَّ سكوتها الآن لن يكون حكيماً، وبأنَّ الوقت حان للاعتراف لأوليڤر بالحقيقة. لا يمكن أن يضرّها ذلك بشيء، ليس بعد أن حصل كريس على الصفقة.

لم تعجبها فكرة إخفاء الأمر عن زوجها، كما لم تعجبها أيضاً الطريقة التي يتّهمها بها. لكن، قبل أن تتمكّن حتى من فتح فمها، رماها أوليڤر بانّهام آخر أسوأ من الأوّل: «أنتِ لا تواعدين رجلاً آخر وحسب، بل تعطينه المال أيضاً... المال الذي أعطيتكِ إيّاه، كرماً وحباً مني».

علا الغضب وجه آنا المحتقن وهي تجيبه: «لقد دقَّقتَ في حسابي المصرفي؟ كيف تجرؤ على فعل ذلك؟ لا تملك الحق».

لو كانت رجلاً، للكمته على وجهه. كان ذلك اقتحاماً لخصوصيّاتها... حتى وإن يكن هو من قدّم لها المال. فتابعت: «إلاّ إن كنتَ تقصد أنَّ المال ليس لي فعلياً. هل هذا صحيح؟ كان ذلك مجرّد مجاملة تجعلك تبدو لطيفاً ممّا يشعرك بالراحة، لكنَّك لم تكن تنوي أن تدعني أصرف أيّاً منه. والآن، بعد أن تلاشى، تتمنّى لو أنَّك لم تهبني إيّاه منذ البدء».

ـ نحن لا نناقش تصرُّفاتي أنا الآن، بل الذي جعلك تهبين ثلاثين ألف باوند، وهذا ما أفترض أنَّك تمتِ به. أم أنَّك دفعته ثمناً لقطعة من المجوهرات الثمينة لم تريني إيّاها بعدُ؟ لا أظنّ ذلك. هناك رجل في هذه القضية، وأريد أن أعرف من هو وما يعنيه لكِ. ولا تستمرّي في ترديد قصّة أخيك السخيفة، لأني لن أصدّقها.

قبل أن تتفوّه آنا بدفاعها، تابع قائلاً: «إنَّه ذاك الفأر الذي كان خطيبك

في السابق، أليس كذلك؟ رجل طموح لكنّه مفلس، كما قلت عنه، لا يريد أن يرتبط بالزواج قبل أن يجمع ملايينه. أهذه هي طريقته في جمعها، امتصاص خيرات الآخرين وسلبها؟».

علا وجنتي آنا الاحمرار وسطع في عينيها الغضب: «أنت مجنون يا أوليڤر لانغفورد. ليس للأمر أيّ صلة بتوني البتّة. في الواقع، الأمر لا يخصُّكَ أنتَ أيضاً. هذا المال كان لي لأفعل به ما يحلو لي، أو هذا ما اعتقدته. إن كان لديك مشكلة في هذا الأمر، إن كنت لا تثق بي بما يكفي لتتقبل وجود سبب قويّ دفعني لفعل ذلك، ولتصدّق أنّي كنتُ سأخبرك بالأمر في يوم ما، فأنت بالتالي لستَ حتى نصف الرجل الذي كنتُ أظنّه».

ـ آه، كنت ستقولين لي؟

ـ بالتأكيد.

ـ في قاموسي، الأزواج لا يخفون الأسرار عن بعضهم.

نفضت رأسها إلى الوراء ليتمايل شعرها الأحمر الحريريّ بشكل خلاّب، وتابعت قائلة: «لو لم تكُن فضولياً لتدقّق في حسابي المصرفي، ما كنتَ لتعلم. وإن كنتَ قد رأيتني وقت الغداء، لم بحقّ السماء لم تأتِ وتكلّمني؟ أم أنَّك تتلذَّذ بقوّة عندما تتجسَّس عليّ؟».

كادت آنا لا تصدّق أنّهما يجريان مثل هذا الحديث، وأنَّ زواجهما المثاليّ باتَ مهدَّداً بالانهيار بسبب وعدٍ قطعته لأخيها.

ـ لم يكن أنا من رآك، بل والدي.

لم تحتج إلى سماع المزيد، فقالت: «آه! وأظنّه لم يستطع الانتظار حتى يخبرك؟ ليشوّه صورتي؟ وأظنّه حقّق هدفاً في إخبارك بأنّه رأى رفيقي وهو يلفّ ذراعه حولي ونحن ذاهبان؟ لا بدّ أنّ ذلك بدا مشهداً حميماً له».

هزّت رأسها بامتعاضٍ وغضب شديدَيْن. كان إدوارد لانغفورد ليعلّق لها حبل المشنقة، وليقطعها إرباً إرباً من دون أيّ ذرّة من الشفقة أو الرحمة، أو أيّ شكّ في صوابيّة ما يفعله. كان ذلك بالتحديد ما يأمل في حصوله.

ظلَّ الشِّجار بينهما يزداد حدّة حتى غادر أوليڤر المنزل في النهاية. لم تعلم إلى أين ذهب، لكنّه لم يعد تلك الليلة، فبدت غرفة نومهما باردة وفارغة من دونه. وظهر في اليوم التالي عند الغداء وبدأ بتوضيب ثيابه وكلّ ما يمكن أن يحتاجه في حقيبة: «ستريننى ثانية عندما تكونين على استعداد لقول الحقيقة، وليس قبل ذلك».

مرّت الأيّام التالية كسواد اللّيل فكانت الأسوأ في حياتها. أدركت أنّ زوجها انتقل إلى منزل والده لأنّها رأت سيّارته تمرّ مسرعة من أمام المنزل. وظلّت تتوقّع أن يدخل أوليڤر من الباب ليعترف بأنّه اقترف خطأً، وبأنّه يحبُّها ولا يقوى على العيش بعيداً عنها، لكنّه لم يفعل. وكان لديها ما يكفي من الكبرياء ليمنعها من أن تلحق به حيث هو.

فضلاً عن ذلك، فهي لن تلقى ترحيباً حاراً هناك. سيستمرّ إدوارد بزرع بذور الشكّ وتأجيج الغضب في نفس ابنه، إلى أن ينتهي حبّه لها وإلى الأبد.

عندما أتى إدوارد شخصياً لزيارتها، لم يفاجئها الأمر. فقد كانت في الواقع تنتظر زيارته. لكنّ ما جاء يبلغها به أصابها حتماً بصدمة كبيرة. قال لها بعدائية وفظاظة: «أريدكِ أن تخرجي من هذا المنزل».

فوجئت آنا بحفاظها على رباطة جأشها وهدوء صوتها واتّزانها، فرفعت رأسها عالياً وقالت: «أعتقد أنّ هذا الأمر يعود لابنك. في ما يخصُّني، نحن ما زلنا متزوّجين ولي الحقّ في أن أعيش في هذا المنزل. أخشى أنّ الأمر لا يعنيك البتّة».

ارتفع الحاجبان الغضّان في استغراب وسخرية: «أحقاً؟ ربّما أغفل أوليڤر أن يذكر أمامكِ أنّ هذا المنزل في الواقع ملكي أنا. وفي هذه الحال، لي كلّ الحقّ في طردكِ منه. أمنحكِ سبعة أيّام لتجدي مكاناً آخر تعيشين فيه».

شعرت آنا كأنّه غرز خنجراً في صدرها. لم يكن أوليڤر قد تفوّه قطّ بكلمة واحدة عن امتلاك والده لهذا المنزل. بحقّ السماء، لمَ لم يشترِ

منزلاً له؟ ليس لأنّه لا يملك المال لذلك. لم يكن هذا منطقياً.

لكنّ عليها الآن أن تفكّر في نفسها. فهي عاطلة عن العمل، ومفلسة مبدئياً، بعد أسبوع، ستصبح من دون مأوى. لا بدّ أنّ إدوارد انقلب على نفسه من الضحك عندما هجرها أوليڤر.

افترضت آنا أنّ بإمكانها الانتقال للعيش مع والديها، لكنهما كانا سعيدين جداً بزواجها من ذلك الرجل الرائع بعد الخطوبة الكارثة مع لوني، ولم تحتمل فكرة أن تخبرهما بانهيار كل شيء بهذه السرعة.

بإمكانها أيضاً أن تذهب لرؤية أوليڤر ومحادثته. قد تذهب لرؤيته في المكتب لتتجنّب إدوارد، لكنّ كبرياءها حالت دون ذلك. لقد أوضح أوليڤر موقفه تماماً، وإن أرادها أن تعود، فعليه هو أن يجري لتحقيق ذلك.

لذا انتقلت إلى كوخ شقيقتها الصيفيّ، المكان نفسه الذي التقت فيه أوليڤر للمرّة الأولى. اللعنة عليه! لقد توقّعت، كحدٍّ أدنى، أن يجاملها باتّصال هاتفي قبل أن تترك منزلهما. لكن لا... لم يفعل شيئاً. لم يقم بزيارتها أو بمكالمتها على الهاتف، أو حتى بترك كلمة مكتوبة على قصاصة ورق صغيرة.

في الواقع، إنّ هذا الكوخ هو أسوأ مكان يمكنها أن تأتي إليه، مكان يضجّ بالعديد من الذكريات، فهنا تعرفت إليه، إنّ مجرّد استحضار تلك الذكريات من مخيّلتها يجعلها تتوه في عالم سحريّ رائع.

لكنّها لم تملك العديد من الخيارات لانتقاء مكان إقامتها في تلك الفترة الوجيزة. لقد أسرَّتْ لأختها بحقيقة الأمر، فعرضت عليها داون الإقامة في الكوخ طيلة الفترة التي تحتاجها. وقالت: «لكن، إن كنتُ أعرفُ أوليڤر جيداً، فهو سيبحث عنكِ قريباً، ويرجوكِ لكي تعودي إليه. هذا الرجل غارق في حبّكِ. لا يمكنك أن تقولي لي إنّ سوء تفاهم غبيّ سيغيّر طبيعة شعوره نحوكِ. ما أن تتحسّن أعمال كريس وتستقرّ، وتشعرين بالحريّة في مصارحة أوليڤر بالحقيقة، عندها...».

هزّت آنا رأسها بإصرار قويّ: «لا أظنّ ذلك. أنا لن أجري وراءه».

ـ لكن...

ـ لكن لا شيء، لقد حسمتُ أمري. وأريدك أيضاً ألاّ تخبري كريس بما حدث، وإلاّ فإنّه سيشعر بمرارة كبيرة. أخبريه، إذا سألكِ، بأنّ أوليفر لديه بعض الأعمال في إيرلندا وبأنّنا نستخدم كوخكِ. كما قولي ذلك لأبي وأمي.

حاولت في الأسابيع التي تلتْ ذلك أن تقنع نفسها بأنّها تخلّصت من أوليفر إلى الأبد، لكنّ الحقيقة أنّها افتقدته أكثر ممّا كانت تتصوّر. افتقدت اللحظات الحميمة التي أمضياها معاً. افتقدت وجوده ورفقته، وحواراتهما الطويلة والهامّة والمحمومة أحياناً. لقد أصبح في هذه الأشهر الستّة القليلة جزءاً أساسياً من حياتها بحيث بات العيش من دونه مستحيلاً، كأنّها فقدت نصفها الآخر.

لعلّ الوقت دواء ناجع لجراحها. هذا ما افترضته، لكن...

بدا جلياً أنّ حبّه لها قد تلاشى، هذا إن كان في الحقيقة مغرماً بها. ربّما كان والده محقاً، ربّما التقت به في إحدى لحظات ضعفه.

ولعل رغبته المتّقدة هي التي حدت به للّحاق بها. رغبة جسديّة تساعده على نسيان المرأة التي عانى منها ما عاناه. لا شكّ في أنّ الناحية الجسديّة في زواجهما كانت عاملاً أساسياً وأوّلياً في إنجاحه.

ثم رنّ جرس الهاتف. كانت داون وحدها هي التي تتّصل بها، لذا كانت صدمتها شديدة عند سماعها صوت أوليفر الأبحّ الجذّاب. وفجأة تسلّلت إلى نفسها وروحها فجأة حاجة ماسة لرؤيته، لعينيه وحضنه، لذراعيه الدافئتين... لكنّها داست على تلك المشاعر وخنقتها بعناد، لأنّها بذلك ترمي بنفسها في المذلّة والضّعة.

كانت الانفعالات الجسديّة مُهلكة وسلبيّة بتأثيراتها ويجب ألاّ تدعها تمسك بزمام الأمور. إن تكن في نيّته محاولة إصلاح الأمور، فهو حتماً سيُصاب بخيبة أملٍ كبيرة. لقد هدم أوليفر نهائياً كلّ الجسور التي تصل

بينهما يوم تخلّى عنها.

لم تكن هناك أيّ مقدّمات: «آنا، أخشى أنّ لديّ أخبار سيّئة».

لم يكن ذلك ما توقّعته: «أوه؟».

ـ تُوفّي والدي البارحة نتيجة نوبة قلبيّة حادّة.

سيطر الذهول على حواسّ آنا كلّها بحيث عجزت عن التفوّه بكلمة واحدة لبضع ثوان. إدوارد لانغفورد، مات! الرجل العجوز الثائر الذي بذل كلّ ما في وسعه لإنهاء زواجها، اختفى! لقد أحزنها سماع الخبر بالرغم من أنّها لم تحبّه حقاً. الحقيقة أنّه لم يسمح لها قطّ بالتقرب منه ومعرفته عن كثب.

قالت أخيراً بلطف بالغ: «آسفة لسماع هذا الخبر. من الصعب تقبّله، فقد بدا رجلاً في غاية الحيويّة، كما لو أنّ أمامه سنين طويلة ليعيشها».

ـ كان والدي عدوّ نفسه الأسوأ، يخالف باستمرار أوامر أطبائه وإرشاداتهم. كنتُ أتساءل ما إذا... أنا... أرغب في أن تأتي لحضور الجنازة.

ـ بالطبع.

تفوّهت بذلك بشكل غريزيّ، ثمّ تساءلت عما إذا كان من الحكمة أن تذهب. لقد أثار إدوارد ابنه ضدّها. إنّ لقاءهما مجدّداً قد يتسبّب بنشوب خلاف جديد، وستكره أن يحدث أيّ شيء من هذا القبيل في جنازة والده. من الأرجح أنّه يدعوها للحفاظ على مظهرهما أمام العائلة والأصدقاء. فلديه العديد من الأقارب الذين لم تلتقِ بهم قطّ، ممّن سيحضرون الجنازة. وبالطبع، هناك ميلاني!

لم تستطع آنا أن تمتنع عن التساؤل عمّا إذا كانت ميلاني عبّدت طريقها مجدداً إلى حياة أوليفر ومشاعره.

* * *

٣ ـ امرأة أخرى بينهما

كانت راحتا أوليڤر متعرّقتين وقلبه يخفق في صدره بعنف غير طبيعيّ. إنّه لأمرٌ مضحك! كيف له، بعد أن باتت آنا لا تعني له شيئاً البتّة، وبعد أن غسل يديه منها وخطّط لإعلام محاميه بالمباشرة بإجراءات الطلاق... كيف له، بمجرّد سماع صوتها، أن تحدث في نفسه مثل ذلك التأثير؟

هزّ رأسه وأجبر نفسه على إنهاء العمل الذي باشره، وهو تنظيم إجراءات الجنازة. لقد ماتَ إدوارد لانغفورد كما عاش تماماً. كان يتجادل مع أوليڤر حول الطريقة التي يتولى بها هذا الأخير إدارة العمل والتي يعتبرها إدوارد غير نافعة، حين انهار على الأرض. لكنه لم يصمد طويلاً، بل فارق الحياة قبل أن تصل سيّارة الإسعاف.

لم يحتمل أوليڤر البقاء في المنزل العائلي بعد أن فارقه والده، فانتقل مجدّداً إلى المنزل الذي عاش فيه مع آنا. ولم يضعه ذلك في حال أفضل مع كلّ الذكريات الجميلة التي تعبق في المكان.

لستّة أشهر كاملة، كان رجلاً يعيش بسعادة تامّة بعد أن وجد فتاة أحلامه ووقع في غرامها. ثم تفتّت قلبه فجأة إلى ملايين القطع الصغيرة.

لو أنّ أحداً أنذره من احتمال أن تتشابه آنا مع ميلاني في جوانب عدّة، ومع باقي الفتيات اللواتي عرفهنّ، لكان قال له إنّه لا بُدّ فقد صوابه. فقد كانت آنا تجسّد التكامل والمثاليّة؛ ولا يُعقل أن ترتكب نفس الخطأ.

فاجأه قبولها المباشر لحضور الجنازة، وأمِلَ ألاّ تظنّ الأمر كما لو أنّه

يشعر بالحنين إليها. لماذا إذن طلب منها الحضور؟ راوده هذا السؤال بقلق. لماذا، إن لم يكن لانتهاز الفرصة وإعادة وصل ما انقطع بينهما؟

لم يوافق والده قطّ على آنا، كما لم يوافق على كلّ ما فعله أوليڤر في حياته. كانت حياته كلّها تسير على هذا النحو.

لكان من المنطقي جداً ألاّ يطلب من آنا حضور الجنازة. ففي الواقع، سيكون من الصعب عليها ادّعاء الحزن على رجل لم يحاول قطّ الترحيب بها في العائلة. لكن، من الناحية العمليّة، فهي لا تزال زوجته، وهو يريدها إلى جانبه. لا أحد من عائلته علم بأمر انفصالهما، والجنازة ليست بالمناسبة التي يُعلنُ فيها مثل هذا الخبر.

تركت آنا سيّارتها وطارت إلى لندن حيث أرسل أوليڤر سيّارة لاصطحابها. راودتها أفكار عن احتمال حضوره شخصياً، ممّا بعث في نفسها القلق. لكن، في الواقع، أتى أحد سائقي شركته لملاقاتها.

تسارعت خفقات قلبها حين اقتربا من «كامبريدج» لكنّها أسكتتها بثبات، رافضة أن تبعث مشاعرها في قلبها الحنين لهذا الرجل الذي تخلّى عنها بهذه القسوة واللامبالاة.

أنزلها السائق عند المنزل، فكانت ممتنّة له. خطر لها أنّ أوليڤر يريدها في منزل العائلة معه، وكان ذلك أمراً لا تستطيع مواجهته.

إن لم يتمّ الترحيب بها هناك في حياة والده، فهو بلا شك لا يريدها هناك الآن بعد موته. كما أرادت مساحة تستردُّ فيها أنفاسها قبل أن تواجه أوليڤر، وقليلاً من الوقت لتعتاد على فكرة رجوعها إلى المكان الذي عرفت فيه السعادة يوماً.

كانت مدبّرة المنزل هناك لترحّب بها: «إنّه خبر مؤسف حقاً موت السيّد إدوارد».

ـ إنّه كذلك بالفعل. هل أوليڤر هناك في المنزل الكبير؟

ـ إنّه في الخارج ينجز عملاً ما. فهناك الكثير ممّا يجب الاهتمام به من أجل الجنازة.

عندما انتهت من إعداد الشاي، وضعت أمام آنا بعض المربيّات وجلست إلى طاولة المطبخ ومالت نحوها محدِّثة:

ـ قولي لي بأن أهتمّ بشؤوني الخاصة إن أردتِ، لكنّي حقاً لا أفهم لمَ افترقتما. كنتُ أرى أنّكما تشكّلان الزوج المثالي. بات أوليڤر يشبه فرساً جريحاً منذ غيابكِ، إنّه يفتقدكِ بجنون.

خطر لآنا أنّ لديه طريقة غريبة في إظهار ذلك، فلو أنّ والده لم يمت، لما كانت هنا الآن. ولا بدّ أنّ الخطوة التالية المتوقّعة ستكون الطلاق، لم تساورها أيّ شكوكٍ حول هذا الأمر البتّة.

ـ إنّه هو من هجرني يا سيّدة غرين وابتعد عنّي. ما من فرصة أبداً لنعود إلى بعضنا مجدّداً. إن كان هذا ما تأملينه، فأنا آسفة.

بدت الخيبة على المرأة وهي تقول: «يؤسفني أنّ الأمور بلغت هذا الحدّ، فأنا أحبكِ جداً يا آنا».

لم تُضيفا شيئاً آخر، وما إن انتهت آنا من تناول فطورها حتى نهضت وراحت تتجوّل في أرجاء المنزل. لم يتغيّر شيء. ما زالت الرسومات التي اختارتها معلقة على الجدران، وأدوات الزينة الأخرى، وأشياء اختاراها سوياً... كلّ شيء في المنزل كما تركته تماماً.

سارت في غرف النوم في الطابق العلويّ، ووضعت حقيبتها في إحدى غرف الضيوف، ثم توقّفت فجأة عند باب غرفتهما السابقة.

تضاربت في نفس آنا مشاعر هي مزيج من ارتعاش وخوف واستسلام وهي تدفع ببطء شديد الباب، وتحوّلت هذه المشاعر إلى الصدمة في لحظة واحدة. لقد عاد أوليڤر إلى المنزل! فهاهما خفّاه الجلديّان بالقرب من طاولة الألبسة، وها هي ربطة عنقه مدلاّة على ظهر الكرسي، لكنّ ما لفتها بوضوح هو عبير عطره الدافىء العابق في جوّ الغرفة.

متى عاد؟ بعد موت والده، أم بعد ذهابها مباشرة؟ أيّ نوع من الأفكار تسيطر عليه عندما يُمدَّد هنا كلّ ليلة؟ هل يتذكّرها أم يذكر كيف كان الأمر قبل الالتقاء بها؟ وهل هذا ما يفضّله... حياة رجل عازب؟

مع كلّ محاولاتها الجاهدة لتفسير ما اكتشفته للتوّ، وقفت عاجزة، ثم سمعت صوت حركة خلفها، وحين استدارت وجدت نفسها وجهاً لوجه مع أوليڤر.

كانت لحظة توقف فيها قلباهما. خلاّباً كما عهدته دائماً؛ شعره الأسود قصير جداً كما لو أنّه قام للتوّ بقصّه، ووجهه فاتن رغم شحوبه البسيط؛ وعيناه مرهقتان وقد أحاطتهما الهالات السوداء، لكنّ ذلك كان أمراً طبيعياً تماماً في ظلّ الظروف الراهنة. باستطاعتها أن تتخيّل ماهيّة شعورها إن هي فقدتِ أيّاً من والديها.

ـ قالت لي السيّدة غرين إنّي قد أجدكِ هنا. شكراً على قدومك يا آنا، إنّ ذلك يعني لي الكثير.

ـ إنّ هذا أقلّ ما يمكنني فعله.

ساد جوّ الغرفة صمت غريب قطعته آنا عندما اقتربت من أوليڤر واحتضنته كما تحتضن كريس وقالت: «أنا آسفة بشأن والدك».

لكنّها كانت مخطئة. ظنّت أنّ بإمكانها اعتبار الأمر عادياً وغير شخصيّ. لكنّها ارتكبت خطأ فادحاً، فما أن اقتربت منه حتى غمرها فيض من الأحاسيس الغريزيّة النابضة، وسيطر على كيانها كلّه.

حتى أوليڤر بدا مذهولاً، لكنّها لم تتقبّل احتمال مبادلته لها تلك الأحاسيس. الأرجح أنه تساءل عن السبب الذي دفعها لفعل ذلك، وهو يصلّي ألاّ يكون في نيّتها إعادة إحياء زواجهما.

ما من داعٍ بالطبع لقلقه. فمهما كانت الأحاسيس التي غمرتها غزيرة وعميقة، إلاّ أنّها حرصت على إخفائها. فقالت جاهدة لترطيب الأجواء وإخفاء توتُّرها المفاجىء: «لم أدرك أنك عدتَ للإقامة هنا مجدّداً».

لم يقدّم أيّ تفسيرات بل اكتفى بالقول ببرود: «إذا كنتِ تريدين هذه الغرفة، أستطيع الانتقال منها بسهولة...».

قاطعته آنا قبل أن يُضيف كلمة أخرى: «لا. لقد سبق لي أن آخترتُ واحدة أخرى. كنتُ فقط أمضي الوقت بالتنقّل في أرجاء البيت. آسفة إن

كنتُ تطفّلتُ عليكَ».

بإمكانها أن تتخيّل بسهولة كيف ستكون الحال إذا ما نامت على السرير الذي شاركها فيه يوماً. كان الوضع سيّئاً بما يكفي في الكوخ، لكن هنا، حيث أمضيا أشهراً طويلة محمومة بسعادة لا توصف، ستكون حالها لا تُطاق ولن تستطيع معها صبراً. كيف بحقّ السماء يتمكّن هو من فعل ذلك؟

- ما دمتِ مرتاحة.

يا لها من كياسة مصطنعة! من الأفضل أن تضع حدّاً لها: «أعتقد أنّ عليّ الذهاب لتوضيب أغراضي والاستحمام».

لكنّه بدا غير عازم على تركها تذهب: «هل لاقاكِ كارل كما هو محدَّد؟».

- نعم، تمت الرحلة في موعدها.

- كنتُ أتيتُ لملاقاتكِ بنفسي، لكن...

- لديكَ واجبات أخرى تقوم بها، أنا أتفهّم ذلك. إنّه لوقت عصيبٌ تمرّ به الآن، يا أوليڤر. إن كان هناك ما تريدني أن أقوم به، أيّ مساعدة أستطيع تقديمها، ليس عليكَ سوى ذكرها.

- شكراً لكِ... إذن، هل تتناولين معي طعام العشاء هذا المساء؟

لم يكن هذا ما عنتهُ آنا واتّسعت عيناها في رعب.

- أنا آسف. لكن لا بأس، فأنا أتفهّم ما قد تكون عليه أحاسيسكِ الآن. سألغي الحجز و...

- لا. سآتي.

أصرّت على قبول الدعوة لشعورها بالأسى والتعاطف معه حينها. لكن، لاحقاً، عندما وافتْ أوليڤر في الطابق السفليّ، عندما عادت تلك الأحاسيس تفيض في كيانها لمجرّد النظر إليه، راحت تتمنّى لو أنّها رفضت دعوته. سيكون من الشاقّ عليها إخفاء انجذابها إليه الذي ما زال يسيطر عليها كلياً وبالقوّة نفسها.

أدركت أنّ هذا الجزء من علاقتهما لن يتلاشى قطّ. قد تشعر بالكراهية نحوه لما فعله، وللطريقة التي اتّهمها بها وشكّك بإخلاصها له، والأسلوب الفظ الذي تخلى به عنها ببساطة... لكنّ الانجذاب الجسديّ الذي يشبه المغناطيس بقوّته، لن يتغيّر أبداً.

كان يرتدي قميصاً أبيض وبنطالاً ضيّقاً أسود؛ وقد ألقى بسترته على ذراع كرسيّ، وكانت ربطة عنقه سوداء اللون، فعاد إلى ذهنها كم أنّه يفتقد والده بلا شكّ.

هي أيضاً اختارت أن ترتدي ثوباً أسود، ولم تفعل ذلك احتراماً لموت إدوارد، لكن لأنه الثوب الوحيد الذي أحضرته معها والذي يتلاءم مع مناسبة العشاء في الخارج. كان ذا كمّين طويلين، يلامس جسدها حتى الردفين ثم يتّسع ليصل إلى منتصف ساقيها.

جالت عينا أوليڤر بتكاسُل عليها، ورفرفتا على جسدها بنوع من التقدير والإعجاب لكنّه لم يعلّق على الأمر بل سألها ببساطة: «هل ترغبين بكوبٍ من العصير قبل أن نخرج؟».

هزّت آنا رأسها: «لا، شكراً».

فكلّما أسرعا بالخروج، كلّما عادا إلى البيت باكراً.

كان أحد المطاعم التي اصطحبها إليها سابقاً، يسوده جوٌّ من الهدوء الأنيق حيث رُتّبت طاولاته الواحدة بعيدة عن الأخرى احتراماً لخصوصيّة الأحاديث التي تجري عليها.

سألته بعد أن جلسا: «كيف عرفتَ أين تجدني؟».

- اتّصلت بداون. أعرف أنّك طلبتِ منها عدم إخبار أحد بمكانكِ، لكنّي لم أترك لها الخيار. لا تَقْسي في حكمكِ عليها.

في الواقع، كانت آنا تعلم مسبقاً ما الذي فعله. فقد اتّصلت بداون في الليلة الماضية بعد أن أبلغها أوليڤر بالنبأ السيّء حول والده، واكتشفت أن أوليڤر اتّصل بأختها بعد ذهابها إلى إيرلندا بوقت قصير. إنّ علمه بمكان إقامتها كلّ تلك الأسابيع من دون أن يفعل أيّ شيء، ترك صدىً عميقاً

مدوّياً في نفسها.

بعد الجنازة غداً، سيشكرها حتماً لمجيئها بكلّ تهذيب، ويتمنّى لها رحلة موفّقة إلى إيرلندا ويخط بذلك الفصل الأخير من زواجهما.

وقد سألت داون كذلك ما إذا علم كريس بانفصالهما هي وأوليڤر. لكنّ أختها حافظت على وعدها في ما يتعلق بهذا الأمر. وأدركت آنا أنّ الوقت حان لتتّصل به وبأهلها أيضاً، فمن حقّهما أن يعلما بحقيقة ما يجري. كانت قد اتّصلت بهما مرّتين من إيرلندا، لكنّهما في كلتي المرّتين ظنّا أنّ أوليڤر معها، ولم تخبرهما قط بغير ذلك.

خلال العشاء، ابتعد أوليڤر في حديثه عن كلّ الأمور الشخصية، واكتفى بالحديث عن عمله، ممّا تلاءم مع رغبة آنا. لكنّه بدا لها من خلال حديثه أنّه لم يعد سعيداً في عمله. لم يقل ذلك صراحةً، لكنّها استنتجت وضعه من خلال نبرته وطريقة كلامه اللتين غاب عنهما الحماس.

لعلّ السبب يعود إلى الظروف الراهنة، إلاّ أنّها استبعدت هذا الاحتمال. كان هناك خطب ما لم يخبرها به، ممّا أحزنها جداً لأنّه لطالما أخبرها بكلّ شيء. فكانت تهنئه عندما تسير الأمور على خير ما يرام، وتتعاطف معه حين يواجه المشاكل والعقبات: وهي الآن تجد نفسها وقد أُبعدت عن هذا الجزء من حياته بالكامل.

كانا في منتصف حديثهما عندما توقّفت عند طاولتهما امرأة شقراء جذّابة ترتدي تنّورة قصيرة جداً، وقالت: «أوليڤر، يا لها من مفاجأة».

ثم انحنت نحو أوليڤر وسألته بصوتٍ غير منخفض: «ما الذي تفعله هي هنا؟».

قال بكياسةٍ وهو يقف من دون أن يجيبها على سؤالها: «ميلاني، كنتُ أظنّكِ في مصر».

أجابت والدموع تترقرقُ في عينيها: «عدتُ هذا الصباح. لم أُصدّق حين أخبرني أبي بأمر عمّي إدوارد. حاولتُ الاتّصال بكَ هاتفياً. مسكين يا

حبيبي، لا بدّ أن الحادث حطّمكَ».

لفّت ذراعها حوله وأضافت: «لم يكن عليك تحمّل ذلك وحدك، آه لو كنتُ هنا، لكنتُ...».

ـ ليس وحيداً.

سمعت آنا نفسها تتفوّه بهذه الكلمات، رغم أنّهما إمّا لم يسمعاها وإما تجاهلا ما قالته. لقد سبق لها أن التقت ميلاني بضع مرّاتٍ، لكنّ الفتاة لم تُظهر لها في أيّ مناسبة أيّ تعاطف أو محبّة، بل عمدت في الواقع إلى معاملتها بازدراء وترفّع بارد.

لطالما افترضت آنا أنّ أوليڤر استمرّ في التعاطي معها بصبر من أجل والده. لكنّه حين أمسكها الآن، وحين مرّر يده في شعرها، بدا كأنّه يواسي ميلاني بدلاً من أن تواسيه هي.

خطر لآنا أنّه تمادى مع ميلاني كثيراً. فقد عاملته هذه الفتاة بطريقة مشينة معيبة، بحقّ السماء. لِمَ يتصرّف الآن بهذه الطريقة؟

تسلّل الحنق والغضب إلى عروقها. هل سيلاحظ أيٌّ منهما إن هي وقفت وغادرت المكان؟

يا إلهي، فهو لم يرحّب بها هي، زوجته، بكلّ هذا الإطراء المفرط! ما كان منها إلاّ أن وقفت والتقطت حقيبة يدها وهمّت بمغادرة المطعم حين أمسكَ بها أوليڤر وسألها بهدوء: «إلى أين أنتِ ذاهبة؟».

ـ إلى التواليت.

ثمّ أضافت في سرّها: لأنّي أشعر فجأة بالغثيان.

ـ أنتِ حتماً لا تغادرين بسببِ ميلاني؟ أعلم أنّها قد تبالغ في تصرُّفاتها، لكن لا أستطيع تجاهلها الآن في وقتٍ كهذا من أجل والدي.

ـ أنتَ رجل حرّ. تستطيع أن تفعل ما تريد مع من تريد. إنّ الأمر لا يهمّني بعد الآن. وإذا كنتَ تفضّل أن تكون ميلاني إلى جانبك الآن، فقد عادت من عطلتها، وفي هذه الحال...

فأجابها بصوتٍ عالٍ وحادّ: «لا! أريدكِ أنتِ إلى جانبي. أنتِ

زوجتي».

ـ لقد هجرتني وتخلّيت عني، يا أوليڤر.

أغمض عينيه لثانية. لكنّه حين نظر إليها ثانية كانت تعابيره فارغة، ومشاعره مخفية بحرص تامّ. وقال: «مهما يكن ما فعلته، أريدكِ إلى جانبي الآن».

من أجل المظاهر؟ خطر لها أن تسأله، لكنّها لم تفعل. فلم يكن الوقتُ مناسباً لوخزه وإيلامه. فقالت ببرود: «سأعود بعد دقيقة».

لكنّها لم تُسرع، بل أخذت وقتها في إصلاح زينتها وتجديد أحمر شفاهها. كانت تمرّر المشط في شعرها تُسرّحه عندما فُتح الباب ودخلت ميلاني.

رأتها آنا في المرآة، ولمحت الشرّ الذي يشعّ في عينيها الزرقاوين، فأدركت على الفور أنّها تنوي إثارة المشاكل. لم تأتِ ميلاني لتصلح زينتها، بل كانت تمهّد لافتعال عراك معها. فاستدارت آنا لتواجهها.

بدأت ميلاني بالكلام أوّلاً: «أرى أنّكِ تملكين جرأة وقحة لتعودي من أجل جنازة العمّ إدوارد بعد أن طردكِ أوليڤر ورماكِ خارجاً».

ـ بما أنّ أوليڤر لا يمانع، لا أجد لك شأناً في الموضوع لتدلي برأيكِ الثمين.

تكلّمت آنا بكبرياء هادئة، وهي تتساءل عن مدى ما قاله أوليڤر لهذه الفتاة عن انفصالهما. لكن، لم يكن في نيّتها الدخول في عراك فظّ ووضيع، فميلاني لا تستحقّ هذا العناء.

ـ لم يعد أوليڤر يحبّك.

كان ذلك تصريحاً طفولياً، فارتفع حاجبا آنا في استهزاء: «هو قال لكِ هذا، أليس كذلك؟».

كانت تلك الحقيقة، نعم، لقد توقّف عن حبّها، لكنّها ليست بحاجة الآن إلى ترديد ذلك بصراحة.

ـ ليس بكلمات صريحة واضحة.

اعترفت ميلاني بذلك وهي تهزّ كتفيها بلا مبالاة، وأضافت: «لكنّنا أمضينا الكثير من الوقت سوياً منذ أن افترقنا. كان بحاجة إلى من يُسكّن مشاعره المنكوبة ويهدّىء من روعه... بإمكانكِ القول إنّنا عُدنا إلى سيرتنا الأولى. إنّه عاشق رائع، أليس كذلك؟ إنّه الأفضل. حرصتُ على ألاّ يفتقد شيئاً أو يشعر بالوحدة».

لا بُدّ أنّ ذلك غير صحيح؟! شعرت آنا بقلبها يعتصر من الألم في صدرها. ممّا لا شكّ فيه أنّ أوليڤر لن يقفز من سريرها هي إلى سرير ميلاني، بعد أن أكّد بشدّة أنّه لم يعد يشعر بشيء نحو الفتاة الأخرى هذه، أم ماذا؟

من ناحية أخرى، كان رجلاً قوياً جذّاباً؛ فكيف تتوقّع منه البقاء أعزب لفترة طويلة. لكن، بالرغم من ذلك، فإنّ فكرة عودته المحتملة لميلاني أثناء غيابها، تبعث الألم في نفسها، ممّا يُصعّب عليها المحافظة على هدوئها، لكنّها نجحت في ذلك بطريقة ما. فقالت لها بابتسامة رسمتها على شفتيها: «هذا جيّد لكِ. والآن، إن سمحتِ لي، يا ميلاني، سأعود إلى أوليڤر قبل أن يظنّ أنّنا هجرناه نحن الاثنتان».

لكنّ عودتها إلى الطاولة وادعاءها بحسن سير الأمور كانا أشدّ صعوبة ومشقّة. رأت أوليڤر يراقبها، مقطّباً ومتسائلاً. فعزمت على عدم إعطائه أيّ سببٍ يدفعه لطرح الأسئلة عليها.

قالت والابتسامة تعلو ثغرها الجميل: «آسفة لتأخّري».

ـ ماذا قالت لك ميلاني؟

أجابت بنبرة بريئة مندهشة: «ميلاني؟ ليس بالكثير. إنّها حزينة جداً بشأن والدك، بالطبع، هل هي هنا بمفردها؟ هل ستنضمّ إلينا؟».

حاولت جاهدةً أن تبدو غير ممانعة، بل مرحّبة بالفتاة الأخرى.

ـ أعتقد أنّها برفقة صديق.

التفت أوليڤر حين خرجت ميلاني. وراحا يرقبان سوياً الشقراء وهي تجتاز الغرفة متوجهة نحو طاولة عند زاويتها وتجلس قبالة صديقها

مبتسمة. كان الرجل أسود الشعر مدَّعي الملامح واثق المظهر، من الرجال الذين لا تثق بهم آنا البتّة، شخصاً فاسقاً بامتياز، لإمضاء بعض الوقت والتسلية فقط لا غير.

كيف يمكن لأوليڤر أن يحتمل ملامسة امرأة تخرج مع رجل من هذا النوع؟ جعلت آنا تتساءل في نفسها قبل أن تسأله: «هل تعرفه؟».

- من؟

- صديق ميلاني. بدوتَ وكأنَّك ترقبهما عن كثب وباهتمام.

هزَّ أوليڤر كتفيه: «إنَّه الفضول فقط. لا أعتقد أنّه سبق لي أن التقيتُ بالرجل من قبل. لكن، في النهاية، لميلاني العديد من الأصدقاء».

- إنّها فتاة جذّابة للغاية.

- نعم، أعتقد ذلك.

- هل لا زلتَ معجباً بها؟

سألها بحدَّة: «ما هذا؟ نوع من الاستجواب؟ لقد دعوتُكِ أنتِ على العشاء الليلة. لا أريد التحدّث عن ميلاني».

- لكنّكما مقرّبان جداً الواحد من الآخر.

لاحظت آنا أنّه لم يُجب على سؤالها. بل هزَّ كتفيه قائلاً: «إنّها تكاد تكون فرداً من العائلة. يسرّني أنّها عادت في الوقت المناسب من أجل جنازة والدي. لغضبت جداً لو لم تعلم بالأمر إلاّ في وقت متأخّر».

- ألم يفكّر أحد في الاتّصال بها هاتفياً... أو ترك رسالة لها في الفندق الذي تنزل فيه؟

- لم يعرف أحد بالتحديد أين هي. كانت في مصر بالطبع، أمّا أين تقيم، فلا أحد على علم بذلك، حتى والدها. لديها هذه العادة بالانطلاق وراء إحدى نزواتها من دون أن تطلع أحداً على أيّ شيء.

- هكذا؟ لعلها قضت عطلتها مع هذا الرجل الذي يجلس برفقتها الآن؟

بدا على أوليڤر الانزعاج من مسار الحديث، فأجاب: «لا أعلم،

ولستُ مهتماً البتّة بالأمر. فهو ليس من شأني ولا يخصّني إطلاقاً».

آه، لكنّه يعنيه بالتأكيد، هذا ما خطر لآنا. فقد بدا عليه الارتباك بشدة إلى حدّ ينفي عدم اهتمامه بالأمر.

حدَّق أوليڤر فيها بعينين مفترستين وقال: «أريد التحدُّث عنكِ أنتِ. أريد أن أعرف سبب رحيلكِ المفاجىء. لم أصدِّق عندما أعلمني والدي برحيلكِ. لم يكن ذلك مفهوماً أو منطقياً. لمَ لم تأتي لرؤيتي قبل الذهاب؟».

لم يقل إدوارد شيئاً إذاً عن إجبارها على مغادرة المنزل والرحيل، ويصعب عليها الاعتراف بالحقيقة الآن وإلقاء اللوم على والده وهو لم يُدفن بعد. فرفعت كتفيها بحركة لا مبالية: «ما الذي كان لدينا لنناقشه؟».

فأجابها بثقة: «لم يكن هناك من داعٍ لمغادرتكِ. ولماذا اخترتِ إيرلندا؟ أعلم أنّي كنتُ غاضباً منكِ... كنتُ في الواقع غاضباً بجنون... لكن، ما كان عليك الرحيل والاختفاء هكذا!».

قالت بهدوء: «ظننتُ أنّه من الأفضل لنا نحن الاثنين أن أبتعد».

- وهل كنتِ سعيدةً هناك؟

- كان الأمر مؤقتاً.

- وماذا عن صديقكِ؟

- أيُّ صديق؟

- ذاك الذي أعطيته المال. هل كان برفقتك؟

أغمضت آنا عينيها. فممّا لا شكَّ فيه أنَّ الوقت والمكان غير مناسبين للبدء بمثل هذا الحديث: «أنت مخطىء بخصوص توني، لكن ليس في نيّتي أو في رغبتي أن أناقش الأمر. أعتقد في الواقع أنّي أفضّل العودة إلى البيت... أعني إلى منزلكَ أنتَ... فأنا متعبة حقاً».

- حسناً.

سدَّد حساب العشاء، وأدهش آنا حين لم يلتفت مرّة واحدةً باتجاه ميلاني وهما يجتازان الغرفة إلى الخارج. لكنَّ آنا فعلتْ، فشعرت

بارتعاشة باردة وهي ترى نظرة الحقد والغلّ في عيني ميلاني. كانت الرسالة في غاية الوضوح. لا بُدَّ أنّها لن تكون المرّة الأخيرة التي ترى فيها ما رأته منها.

***

٤ ـ اصمت واحتضني!

أصرَّت آنا على الذهاب مباشرة إلى السرير عندما رجعا إلى المنزل رغم أنَّ الساعة لم تكن قد تجاوزت التاسعة إلاّ بقليل. إنَّ رفض أوليڤر التشكيك في صحّة اتّهامه لها، واعتقاده جازماً أنّها قدّمت المال بغية تحقيق مآرب شخصية، جرح آنا في الصميم بحيث باتت تتجنَّب تعريض نفسها لمزيد من تلك الاتّهامات. أرادت أن تمضي معه أقلّ ما يمكنها من وقت.

سمعته يصعد السلالم إلى الطابق العلويّ بعد منتصف اللّيل بقليل، وسمعته يتريَّث عند باب غرفتها. فانتظرت وهي تتساءل إن كان سيفتح الباب ويدخل. راحت دقّات قلبها تعلو وتعلو إلى أن أصمَّت أذنيْها، مترافقة مع دقّات الثواني والدقائق.

لكنّه تحرّك أخيراً، لحسن حظّها. ثم سمعت صرير باب غرفة النوم وهو يُغلَق، كان دوماً يصدر هذا الصرير وقد وعدا نفسيهما بإصلاحه. حينها فقط أدركت أنّها كانت تحبس أنفاسها طيلة الوقت.

ماذا تراه جال في ذهنه وهو واقف خارج باب غرفتها؟ تمنَّت لو تقنع نفسها بأنّه أراد بشدّة الدخول والتعبير لها عن حبّه العميق كما كان يفعل في السابق بلهفة وحماسٍ شديديْن. لكنّها أدركت أنَّ الأمور لن تعود إلى سابق عهدها، فذاك الجزء من حياتها قد طُويتْ صفحته إلى الأبد.

هل علمت حقاً في يوم من الأيام ما الذي يجول في رأس أوليڤر؟ هل كان مسروراً أم آسفاً لما آل إليه زواجهما من نهاية حزينة؟ هل ينوي

www.elromancia.com

المباشرة بإجراءات الطلاق ما أن تنتهي الجنازة؟ أم أنّه نادمٌ بشدّة على انفصالهما لكنّ كبرياءه وعنفوانه يمنعانه من التراجع عن موقفه؟

عندما لم تنزل آنا لتناول الفطور، أحضرت السيّدة غرين صينية الطعام إلى غرفتها وقالت: «إنّها أوامر أوليڤر. يجب أن تأكلي شيئاً. قال إنّك بالكاد لمستِ عشاءك ليلة أمس».

تثاءبت آنا وهي تجلس في سريرها نعسة، وقالت: «أنتِ لطيفة للغاية، يا سيّدة غرين».

ثم رفعت الغطاء عن الطبق وشهقت حين رأت كميّة الطعام المتنوّع من البيض المخفوق إلى اللحم إلى الفطر والخبز والعسل والزبدة والمربيّات.

ـ لكنّي لن أستطيع تناول كلّ ذلك!

فقالت مدبّرة المنزل بحرارة ودفء: «لقد فقدت بعض الوزن. أراهن على أنّك لم تأكلي جيداً منذ مدّة طويلة. والآن تناولي فطورك كالفتيات الجميلات. سأضع لك فنجان الشاي على الطاولة، هل أسكبه لكِ؟».

ـ أستطيع تدبُّر أمري. شكراً لكِ.

وما أن غادرت السيدة غرين الغرفة حتى دخل أوليڤر. كان شعره لا يزال رطباً بعد الحمّام، ويرتدي بنطالاً أسود وقميصاً حريرياً أبيض. بدا هزيلاً وشاحباً فاعتصر قلبها لرؤيته بهذه الحال. قال: «هل أحضرت لكِ السيّدة غرين ما أمرتها به؟».

ـ هذا يتعلّق بما أمرتها أن تحضره.

ـ لم تأكلي ما يكفي ليلة البارحة، ولم تنزلي لتناول الفطور هذا الصباح، ولم يبق على موعد الجنازة إلاّ ساعة واحدة. أيّ لعبة تحاولين أن تلعبي معي؟

شعرت آنا بخوف لم تعرف له سبباً: «لم أدرك كم أنّ الوقت متأخّر. لم يعد أمامي الوقت الكافي لتناول الفطور. سأقوم بـ..».

لكنّ أوليڤر كان حاسماً: «تناولي طعامكِ. لا أريد أن يُغمى عليكِ في

الجنازة».

ـ شرط أن تغادر الغرفة. فلا أستطيع تناول فطوري وأنت تراقبني بهذه الطريقة.

لكنّ ما كان يربكها هو النظر إليه وإلى عينيه المشعّتين.

كان الناس كلّهم مجتمعين في المقبرة، أفراد العائلة والأصدقاء وزملاء العمل، الكلّ كان حاضراً يشارك أهل العزاء حزنهم حين لاحت من بعيد امرأة فارعة القامة، أنيقة المظهر، نحيفة، رشيقة في بزّتها السوداء وقبّعتها التي تُظلّل وجهها، وراحت تشقُّ طريقها نحوهم.

لم تكن لدى آنا أيّ فكرة عن هويّة المرأة التي وصلت متأخّرة، لكنّها رأت أقارب أوليڤر، خاصة المسنّين منهم، يتغامزون ويتهامسون من دون أن يبتسم للمرأة أيّ منهم أو يلقي عليها التحيّة.

كان أوليڤر آخر من رآها، وعندما فعل، لاحظت آنا أن عينيه ضاقتا بحدّة وشهق تحت وطأة المفاجأة. وحين نظرت إلى يديه، كانتا منقبضتين بتوتّر شديد. إلاّ أنّها لم تعرف من تكون المرأة إلاّ بعد عودتهم إلى المنزل.

كانت السيّدة غرين، بمساعدة مدبّرة منزل السيّد إدوارد قد أعدّتا أصنافاً عديدة من الأطعمة للحاضرين. وقفت آنا إلى جانب أوليڤر قرب الطاولة بينما شرع الباقون بتناول الطعام. وإذا بالمرأة التي أحدثت كلّ تلك الجلبة والتوتّر، تظهر فجأة أمامهما.

قالت بصوتٍ أبحّ وشفتاها المغريتان يعلوهما ما يشبه الابتسامة: «أوليڤر، يا لكَ من رجل وسيم أنيق، أنت لا تعلم بالطبع من أكون، لكن...».

أجابها بصوت متشنّج قاس: «أعلم من تكونين. ما أرغب في معرفته هو السبب الذي أتى بكِ إلى هنا».

مرّرت المرأة أصابعها، بأظافرها المطليّة باللّون القرمزيّ، على ذراعه بنعومة. وقالت: «ما الذي كان يقوله إدوارد عني؟ جئتُ لأقدّم تعازيّ

الحارّة بزوجي الراحل. ما من جريمة في ذلك، أليس كذلك؟».

شعرت آنا بثغرها ينفتح واسعاً، فقد قيل لها إن والدة أوليفر تُوفّيت. كيف يُعقل أن تكون هذه والدته؟

لكنَّ مجرَّد النظر إليها كان كافياً لترى الشبه الكبير بينهما، خاصة أنفها الدقيق المستقيم وشحمتيْ أذنيها الظاهرتين. في الواقع، كان أوليفر يشبه والدته أكثر من والده.

أجابها أوليفر بهدوء: «باستثناء أنَّكِ لم تعودي زوجة إدوارد».

ابتسمت المرأة، وشفتاها الزاهيتان تنبضان بالشرّ: «ألم يخبرك والدك، يا عزيزي، بأنّنا لم نتطلّق قط؟ أعلم أنَّ ذلك يرجع إلى ثلاثين سنة خلت، لكننّا بطريقة ما لم ننهي الأمر. لم أتزوّج ثانية، تماماً كإدوارد، لذا تركنا الأمور كما هي عليه، تعلم كيف».

ـ لا. أخشى أنّي لا أعرف كيف. وأظنُّ أنه من الأفضل لنا جميعاً أن تغادري المكان فوراً.

لكنَّها ابتسمت وقالت: «لا أستطيع المغادرة، يا أوليفر. أريد أن أسمع الوصيّة. إلاّ إن كنتَ تعلمُ مسبقاً ما تحتويه؟».

أرغم أوليفر على الاعتراف بجهله بما في الوصيّة: «سيأتي محامي والدي بعد ظهر اليوم لقراءتها».

ـ ظننتُ أنَّ الأمور يجب أن تسير على هذا النحو. فقد كان لإدوارد آراء تقليدية حول العديد من الأشياء... لم لا تقدّمني إلى... زوجتك حسبما أظنّ؟

قام أوليفر بذلك بنفور وثقل. صافحت آنا يد المرأة المثلجة، لكن ما إن تركتهما لتختلط بالآخرين حتى سألته آنا رغماً عنها: «أوليفر، كنتُ أظنُّ أنَّ والدتكَ توفيت عندما كنتَ صغيراً؟».

اعترف أوليفر بتجهُّم: «كانت لديه نوايا محدَّدة وأهداف.. هذا ما كان والدي يرغب في اعتقاده. فقد هجرته روزماري بعدما خسر أمواله في صفقة فاشلة. قالت إنّه لا ينفعها في شيء من دون أمواله. إنها مشكلة

المال مجدَّداً!».

ـ وأنت تذكرها جيّداً؟

ـ احتفظتُ بصورة لها، كما رأيتها في مجلّة التايمز في أخبار المجتمع. فهي نادراً ما تبقى من دون رجل.

ـ هل تعتقد حقاً أنَّها ووالدك لم يتطلقا قطّ؟

ـ هذا ما أنوي أن أسأل شارلز ميلر عنه، فأنا أظنُّها كاذبة. إنّها تعرف مدى اتّساع ممتلكات والدي. وقد حاولت مرّة أو مرّتين خلال تلك السنوات أن تعود إليه مجدَّداً، لكن من دون جدوى.

ـ لا تبدو وكأنها تعاني من نقص في الأموال. فهذه البزّة التي ترتديها من تصميم أكبر دور الأزياء العالمية. لعلّنا نظلمها؟ لعلّها أتتْ لتقدّم تعازيها؟

ـ أرغب في تصديق ذلك. لكنّي لا أظنّ ذلك صحيحاً.

في وقت لاحق، سألته آنا بهدوء بعدما جلس الجميع في غرفة المكتب بانتظار سماع الوصيّة: «ماذا قال شارلز ميلر بشأن والدتك؟».

فأجاب: «لم يحصل أيّ طلاق. يبدو أنّ والدي ظنّ أنّه ينتقم من روزماري بعدم منحها الحريّة لتتمكّن من الزواج برجل آخر».

لطالما كان اسم روزماري محرّماً ذكره في منزل آل لانغفورد. وكان إدوارد في المقابل يصبُّ جام غضبه على الطفل الذي تركته وراءها.

أمسكت آنا يد أوليفر بتعاطف ليس إلاّ، لكن شعورها ما لبث أن تحوّل إلى نار استعرتْ في أعماقها وراحت تتأجّج شيئاً فشيئاً إلى أن كادت تختنق هي وأوليفر سوياً. كيف يمكن للمسة بسيطة أن تسخر من تصميمه وعزمه على إنهاء هذا الزواج؟ فقد أثبتت أنّها ليست بأفضل من روزماري أو ميلاني. ما خطبه؟ لمَ هو عاجز عن طردها من قلبه وفكره وحياته؟

عندما قُرأت الوصيّة، عرف الجميع أنَّ الحصّة الأكبر من ممتلكات إدوارد انتقلت إلى ابنه. ووُزّعت مقادير صغيرة على مختلف الأقرباء، وخصصت نسبة صغيرة لميلاني. أمّا آنا فلم تحصل على شيء، كذلك

روزماري... ممّا أغضب والدة أوليڤر.

استحال وجه المرأة إلى اللّون القرمزيّ فانتفضت وهبّت واقفةً على قدميْها: «أريد الاعتراض على الوصيّة. أنا أشكّكُ في صحّتها. أنا زوجة إدوارد، لا يمكنه أن يحرمني من كلّ شيء».

أجابها شارلز بصوتٍ أجشّ واثق: «هذا خيارك. لكن عليّ إبلاغكِ الآن، يا سيّدة لانغفورد، بأنّك لن تتمكّني من الوصول إلى شيء باعتراضك».

أمسكَ أوليڤر ذراع آنا ورافقها إلى خارج غرفة المكتب قائلاً: «لنذهب إلى منزلنا. ستتولّى السيّدة هاغز إقفال الأبواب حين يخرج الجميع».

الطريقة التي لفظ بها كلمة «منزلنا» أثلجت صدر آنا. بدا كأنّه يعني بها منزلها هي أيضاً، حبّذا لو كان ذلك صحيحاً. كانت الأشهر الستّة التي أمضتها معه خلال زواجهما ملأى بالسعادة، تفيض بالحب والضحك إلى حدّ يصعب معه الاعتراف بانتهاء كلّ شيء وزواله. إن حاولت جاهدة، قد تستطيع الادّعاء أنّ شيئاً لم يحدث قطّ وأنّهما لا يزالان غارقين في الحبّ والوئام.

ما إن دخلا إلى المنزل وخلع سترته وربطة عنقه وفكّ أزرار ياقته، ثم ارتمى على كرسيّه المفضّل في غرفة الجلوس، حتى كادت تصدّق ادّعاءها.

بدأت الراحة تتسلّل إلى خطوط وجهه لتزيل عنه التوتّر والشحوب، حين علا طرقٌ عنيفٌ وحادّ على الباب. شرع أوليڤر يلعن ويشتم، فقالت له آنا في محاولة لعدم تضييع هذه اللحظات الثمينة: «لا تفتحه».

ـ قد يكون شارلز، متلهّفاً للهروب من هناك مثلي تماماً. عليّ أن أتكلّم معه.

لكنّه لم يكن شارلز، فقد سمعت آنا عندما فتح أوليڤر الباب صوت روزماري، روزماري الغاضبة إلى حدّ الجنون. صاحت في وجه ابنها:

«الهروب هو لعبة الجبان. ما الأمر؟ ألم تحتمل مواجهة الموقف، ووالدتُكَ تُغضب محاميك المقدّس؟».

أجاب بهدوء: «أشكُّ في قدرتكِ على إغضاب شارلز».

ـ حسناً، لا يعتقد أنّي سأتنحّى جانباً وأستسلم بكلّ بساطة. لي الحقُّ في قسم من أموال إدوارد.

حافظ أوليڤر على هدوئه ممّا أثار إعجاب آنا: «بإمكانكِ الاعتقاد كما تشائين، لا شأن لي بالأمر البتّة».

لاحظت آنا أنّه لم يدعها للدخول، ولا تستطيع إلقاء اللّوم عليه، فلا بدّ أنّ والدته هي آخر شخص قد يحبّه أوليڤر.

ـ لكَ كلّ الشأن بالأمر. إن كنتَ ابناً جيّداً، فأنتَ من سينُصفني ويعطيني حقّي، فلا أعود بحاجة للمرور عبر المحامين والقضاء. كلّ ذلك سيكلفني الكثير من المال لـ...

قاطعها أوليڤر سريعاً: «أنا متأسّف، لكن حسب رأيي، أنتِ تخلّيتِ عن حقّك بأمومتك يوم هجرتِ هذا المنزل».

انتظرت مقطوعة الأنفاس، تنصت بانتباه إلى ما ستقوله روزماري. ربّما يتوجّب عليها أن تنضمّ إليه لتقدّم له بعض الدعم.

لكنّ روزماري قرّرت على ما يبدو الاكتفاء بما قالته. سارت عائدة نحو الممرّ، واستدارت عندما بلغت الطريق العام. تمكّنت آنا من رؤيتها عبر النافذة، بذقنها المرفوع عالياً وظهرها المستقيم وشفتيها القرمزيّتين الغاضبتين في وجهها الشاحب الجميل. ثم قالت بصوت عالٍ: «أنتَ لم ترَ النهاية بعد. سأكون في الجوار لبعض الوقت. لا تظنّ أنّي سأفرّ من هنا بهدوء؛ فهذا ليس أسلوبي وطبعي».

كان أوليڤر يشبهها أكثر ممّا يتصوّر. هذا ما شعرت به آنا وهي تراقبها. فهما لا يشبهان بعضهما بعضاً في الشكل الخارجي وحسب، بل يملكان التصميم والعناد نفسيهما لتحقيق هدفهما عندما يظنّان أنّهما محقّان.

حين عاد إلى الغرفة، كانت ملامحه قد استعادت حالتها الأولى: «آسف لما جرى».

علمت آنا أنَّ لحظات الراحة التي عرفاها سوياً عندما بلغا المنزل قد تلاشت. كان أوليفر يتألّم، يتألّم بشدّة، وتمنَّت لو أنَّ باستطاعتها فعل أيّ شيء للتخفيف من حدّة ألمه.

- لنأمل أنَّ روزماري ستتقبّل فشلها في هذه المعركة تحديداً، وستختفي بلباقة مجدَّداً.

- إنَّ روزماري من الأشخاص الذين لا يعرفون سوى الأخذ والاستئثار بكلّ شيء لنفسهم. الشيء الوحيد الذي أعطته، طيلة حياتها، هو الحياة لي، ولادتي. والفائدة القليلة التي حصلت عليها.. أو حصلتُ أنا عليها، جرّاء هذا الأمر.

قطّبت آنا حاجبيها: «ما الذي تعنيه؟».

- ليس الأمر بهامّ... آه، يا له من يوم!

- الجنازات، دائماً ما تكون مصدراً للإرهاق والتوتُّر.

- بعضُها أكثر من البعض الآخر... تعالي إلى هنا، أنا بحاجة إليكِ.

أرعب طلبه آنا لكنّها لم تستطع الرفض، فراحت في المقابل تقترب منه ببطء، وعيناها مسمَّرتان على عينيه، متجاهلة صوت نبضاتها الصارخ والاحمرار الذي صبغ بشرتها الرقيقة وارتعاش مفاصلها.

عندما شدّها أوليفر لتجلس في حضنه ووضع رأسها في تجويف كتفه، محيطاً جسدها بذراعه واحتضنها بدفء، شعرت بنبضٍ يتصاعد في أنفاسه، صدىً لاحتقان فشل في إخفائه.

خفق قلبها في تجاوب وإثارة. فقد جلسا بهذا الشكل مئات المرّات من قبل، ولم يؤدِّ ذلك في كلّ مرّة إلاّ إلى شيء واحد.

مرّر إصبعه على وجنتها كأنّه مشحون بالطاقة، وسألها بهدوء: «متى ستعودين إلى إيرلندا؟».

تأوّهت آنا في نفسها متذمّرةً. أكان عليه التطرّق إلى مثل هذه الأمور

في اللحظة التي ترى فيها الجنّة أمام عينيها؟ لم تُرد إفساد هذه اللّحظات الثمينة بإجراء الأحاديث.

ما أرادته بالفعل هو أن يحضنها بشوق ودفء وحبّ. أن يحضنها كما كان يفعل في السابق بشغف وعشق لا مثيل لهما. أرادت أن تشعر بنفسها زوجة له وحبيبة، أرادت... أرادت الكثير، الكثير...

- آنا؟

- ... أوه، غداً...

أو ربما قبل ذلك بكثير إن كان سيعاملها بهذه الطريقة. قبل ذلك بكثير! وأضافت: «لكنَّه إجراء مؤقت. فسأعود إلى لندن في وقت قصير، وأجد لنفسي عملاً».

... والآن، أصمت واحتضنّي..

ظلَّت للحظة تسمع صوت نبضاته وأصابعه المرتعشة تتنقَّل على وجنتها ثم على حنجرتها، تسرِّح خصلات الشعر الحريريّ إلى الوراء، وتتريَّث قليلاً عند ثغرها الجميل.

ثمّ تكلّم مجدّداً: «هل ستكونين سعيدة في لندن؟ أذكر أنَّك أخبرتني كم كنتِ مسرورة لخروجك من سباق الفئران ذاك».

فأجابت بصوت مختنق: «كنتُ مسرورة، نعم. لكن على الفتاة أن تكسب عيشها».

أخطأت في اختيار ما تقول.. فأجابها: «أو تجد لنفسها زوجاً ثرياً يحقّق لها رغباتها ويغذّي نزواتها. فكّري في الأمر، فأنتِ لستِ مختلفة جداً عن روزماري».

انتفضت آنا مبتعدة عن حضنه، والغضب يسطع في عينيها، وإثارة من نوع آخر تحبس الهواء داخل رئتيها المحتقنتين: «كيف تجرؤ؟ كيف تجرؤ على مقارنتي بتلك المرأة؟».

كانت توشك على إضافة الكثير ممّا لديها، لكنَّ حدسها نبَّهها إلى أنَّ أوليفر عانى اليوم بما يكفي، ولعلّه لم يكن يفكّر بشكل سويّ.

- تعتقدين إذن أن لا سبيل للمقارنة بينكما؟ ربّما يجدر بكِ النظر إلى الأمور من زاويتي أنا.

- أعتقد أنّك مرهقٌ ولا تدري ما تقول. والحقيقة أنّي متعبة أنا كذلك. أظنّني سأصعد إلى غرفتي وأحاول الحصول على قسط من الراحة.

جهدت آنا لتحافظ على هدوئها الظاهريّ، برغم كلّ الغضب الذي كان يغلي في عروقها.

لدهشتها، سمح لها بالذهاب، لكنّها ما إنْ غادرت الغرفة حتى سمعت تأوُّهه. «ليتأوّه وحده هذا الغبيّ. كأني آبه له». هذا ما خطر لآنا وهي متجهة نحو غرفتها.

لكنّها تأبه. لم تكن تحبّ رؤية أوليڤر غاضباً أو منزعجاً. إنّ دفن والده كان وحده كافياً لقلب مزاجه، لكن أن تظهر روزماري لتزيد الأمور سوءاً وتضيف عذاباً إلى عذابه بتصرّفها العلنيّ الفاضح، ذلك ما جعل نهاية هذا اليوم مقيتةً بغيضة.

وها هو الآن يصبُّ غضبه وسخطه عليها، وكادت أن تردَّ له الصفعة، لكن ذلك سيخلق حتماً المزيد من المشاكل.

• لم تدر آنا كم كانت الساعة عندما أتى أوليڤر إلى غرفتها. فقد غفت على سريرها، ورأت في حلمها أوليڤر يلاحقها حول إحدى البحيرات في سكون الليل.

أفاقت على صوت صرخاتها لترى أوليڤر واقفاً قرب السرير. كان الظلام دامساً، ما خلا النور الباهت المتسلّل من الخارج حيث البدر. لم تكن متأكّدة ممّا إذا كانت تحلم، فصرخت: «إبتعد عنّي!».

بدلاً من ذلك، جلس على حافة السرير واحتضنها، قائلاً بلطف: «لا بأس. كنتِ تحلمين».

فاعترفت له بهدوء: «كنتُ أحلم بك. في الواقع، كان كابوساً».

- أعتقد أنّي قلتُ أشياء ما كان يجدر بي قولها.

- لا تعتذر.

بعد أن احتضنها مرّة ثانية بين ذراعيه، شعرت آنا برحابة صدرها وتسامحها. لم تُرد حتماً الدخول في جدال معه، رغم أنّه ما كان ليقول تلك الكلمات لو لم يرَ فيها شيئاً من الحقيقة. وهو لن يتقبّل قطّ ما قالته عن الأسباب التي دفعتها لوهب ذلك المال، والتي تبعد بكثير عن أيّ دوافع أنانية. وسيكون أملها في بناء مستقبل لهما معاً غير ذي جدوى.

استمرّ أوليڤر في احتضانها، وراحت عيناه تشعّان ببريق أخّاذ في عمقه ومعانيه أربكَ آنا فباتت لا تدري كيف تستجيب. بقيت ساكنة بين ذراعيه وهي تسمع نبضات قلبه المتسارعة بجنون.

كان لاحتضانه لها معان أخرى! فانحبست أنفاسها وأغمضت عينيها لكي تحجب عن بصرها صورة هذا الرجل الذي كان زوجها بالاسم فقط. لن يكون من الحكمة أن تدعه يتمادى معها أكثر من ذلك، لكن أنّى لها أن تمنعه، وفي كلّ ثانية يزداد شوقها إليه التهاباً وتتسارع خفقات قلبها لتتناغم مع خفقات قلبه هو؟ بعد كلّ ما حدث بينهما، وجدت آنا نفسها تهيم بعطره المثير، كأنّ شيئاً لم يتغيّر!!

* * *

كان الخروج من غرفة آنا كأنّه العذاب بذاته، فشوق أوليڤر إليها بلغ حدّاً لا يمكن احتماله. كما أنّ الطريقة التي ساندته فيها اليوم وهي تلازمه طيلة الوقت وتحرص على تعزيته وتهدئته وتطييب خاطره كانت الشعلة التي ألهبت مشاعره بعد أن ظنّها قد خمدت منذ زمن طويل.

كانت آنا بروحها وجسدها تمثّل كلّ ما أراده يوماً في المرأة، وتجسّد صورة شريكته المثاليّة، لكنها لسوء الحظ كانت شأنها شأن سائر بنات جنسها من النساء، تركّز اهتمامها على أمور أخرى. لمَ يشكّل المال لدى المرأة دائماً نقطة الاهتمام الأولى؟

عندما عارضت آنا فكرته حول فتح حساب مصرفيّ لها، معتبرةً إيّاه يبالغ في كرمه معها، مؤكّدة له اكتفاءها بمصروف المنزل ليس أكثر، صدَّقها. وخطر له كم أنّها رائعة حقاً، ومختلفة ومتميّزة إلى درجة كبيرة،

فأنعشت الفكرة روحه، وعزّزت حبّه لها.

لكنّها لم تكن مختلفة البتّة، بل تفكّر وتخطّط بطريقة أخرى. فقد أرادت أن تنتظر ريثما يصبح المبلغ يستحقّ العناء، فراقبته وهو يكبر ويكبر، إلى أن أعطته لعشيقها السابق، إن كانت كلمة «سابق» تعكس حقيقة الواقع. فمن المحتمل أنّه لا يزال عشيقها، كما خطر لـ أوليڤر. هل يُعقل أنها كانت تحيك خيوط مؤامرتها وتدبّر مكيدتها منذ البداية؟ قالت له إنّ توني لم يكن معها في إيرلندا، لكنّه يشكّك الآن في صحّة أقوالها.

في كلّ مرّة يعيد في ذهنه تلك الأفكار، كان الدم يغلي في عروقه. فهو لم يصدّق أبداً قصة أخيها التي روتها له، فأخوها رجل أعمال ناجح ليس بحاجة للمال.

كان الرجل، حسب الوصف الذي قدّمه له والده، طويل القامة أشقر الشعر وسيم الطلعة بهيّها... وكان هذا الوصف يتطابق مع ما سبق لها أن روته عن توني. لا بدّ أنّه هو! وصفق أوليڤر باب غرفة نومه وراءه.

شعر بالرضى عن نفسه لخروجه من غرفتها، ولعدم استسلامه لمشاعره المجنونة التي تجيش في صدره كلما كان وحيداً برفقتها. فهي امرأة فائقة الحيوية تنبض بالحياة والطاقة، بشعرها الأحمر وعينيها الخضراوين، مما يجعل من مقاومته لها أمراً مستحيلاً.

لكنّ جزءاً من بريق هذه المشاعر وتوهّجها خبا بعد ظهورها مجدّداً من أجل الجنازة. هل يعود السبب في ذلك إلى الحزن والكآبة اللذين تفرضهما هذه المناسبة، أم إلى إدراكها بأنّ منبع المال السريع الجاهز الذي كانت تغرف منه قد نضب؟ وهو يراهن على رجحان كفّة الاحتمال الثاني.

وضّبت آنا حقيبتها قبل أن تنزل إلى الطابق السفليّ، إذ لم يعد من المنطقي تأخير رحيلها. اكتشفت أنّ أوليڤر قد تناول فطوره وخرج من المنزل، فسألت مدبّرة المنزل وهي تحضر لها فنجاناً من الشاي: «هل ترك لي رسالةً؟ هل ذهب إلى العمل؟».

لم يكن من عادته أن يغادر المنزل في هذا الوقت المبكر من الصباح.

فأجابتها المرأة: «ليست لديّ أيّ فكرة. هل ترغبين في تناول البيض المخفوق والفطر أم اللحم والطماطم؟».

ـ قليل من الخبز المحمّص من فضلك.

لوّحت السيّدة غرين بإصبعها محذّرة: «لن يروق هذا للسيّد أوليڤر. فقد أعطاني أوامر صارمة بوجوب تناولك فطوراً مغذياً».

كان عليه إذن أن يبقى ليحرص على تحقيق ذلك. شعرت آنا بالإهمال من غيابه، فهو يعلم أنّها سترحل اليوم. ألا يريد أن يودّعها؟ هل أخطأت في قراءة الإشارات وتفسيرها في الليلة الماضية؟ وما كان السبب وراء صفق الباب وراءه بهذه الطريقة؟

خطر لها أنّ السبب يعود ربّما إلى شوقه إليها، لكنّها مخطئة بلا شكّ. فهو لم يعد يرغب فيها، بعد أن عاد إلى رشده وأدرك أنّها تمثّل العدوّ وليس الحبيب. حسناً، إنّ هذا كلّه يناسبها، وعندما يعود إلى المنزل اليوم، تكون قد رحلت، ولن يراها أبداً بعد الآن.

لكن قبل أن تبتعد آنا عن طاولة الفطور، أعلنت لها السيّدة غرين أنّ لديها زائراً: «إنّها روزماري لانغفورد. قلتُ لها إنّ أوليڤر ليس هنا لكنّها قالت إنّها ترغب بالتكلم معك. جعلتها تنتظر في غرفة الاستقبال».

لم تشأ آنا التحدّث إلى روزماري، لا الآن ولا في أيّ وقت آخر. لكن يبدو أن لا مفرّ من ذلك: «حسناً، يا سيّدة غرين. امنحيني خمس دقائق فقط ثم تعالي لإنقاذي».

افترّ ثغر مدبّرة المنزل عن ابتسامة مشرقة: «بكلّ سرور».

كانت روزماري ترتدي بزّة أخرى سوداء من الصوف النقيّ وحذاء عالي الكعبين. وخطر لآنا أنّ للسيّدة روزماري ساقين جميلتين ممشوقتين بالنسبة إلى عمرها. في الواقع، كانت امرأة حادّة الذكاء، بشعرها الأسود الحريريّ المعقود هذا الصباح في ضفيرة أنيقة. لم يبدو عليها بالتأكيد أنّها بحاجة إلى ثروة إدوارد. وقد شعرت آنا كم أنّ ثيابها رثة بقميصها القطنيّ وبنطالها الجينز، وهي تقف أمام هذه السيّدة البالغة الأناقة.

كانت المرأة واقفة بالقرب من النافذة ترقُب الخريف في الحديقة. استدارت عند دخول آنا إلى الغرفة، فلمحت هذه الأخيرة قرطيها الذهبيَّين اللمّاعين ولاحظت ابتسامتها المصطنعة ورأت عينيها الرماديَّتين القلقتين الحذرتين قبل أن تقول: «الطف منكِ أن تقابليني».

من الجيِّد أنها لم تدخل في صلب الموضوع مباشرة، هذا ما خطر لآنا قبل أن تجيبها مسرعة: «آسفة لأنَّ أوليفر ليس هنا».

ـ لم آتِ إلى هنا لكي أرى أوليفر. أريدكِ أن تكلّميه من أجلي، يا آنا. أريدكِ أن تقنعيه بوجوب حصولي على نصيبي من أموال إدوارد.

ما من شيء أفضل من التكلم بصراحة تامّة ومباشرة. لكنّ آنا أرادت بشدّة أن تضحك في وجه المرأة: «آسفة. لا أستطيع فعل ذلك».

ـ ولِمَ لا؟

ـ لأنّ الأمر لا يعنيني البتّة.

شعّت عينا المرأة ببريق خبيث: «لأنَّ اسمكِ لم يُذكر في الوصيّة أيضاً؟ أتساءل عن الأسباب وراء ذلك! هل ظلمك إدوارد كما فعل معي أنا؟».

هزّت آنا رأسها بثبات وحدّة، فهي لن تدع هذه المرأة تضعها في خانة واحدة معها، وتتكلم كما لو أنّهما سوياً ضحيّتا الوصية: «أعتقد أنّ ظروفي بعيدة كلّ البعد عن طبيعة ظروفكِ أنت».

التوت شفتا المرأة القرمزيّتان في ابتسامة ماكرة: «أوه، لا أعلم! سمعتُ أنّ زواجكما يوشك على الانهيار. لم تتمكّنا البارحة من خداعي بتمثيليّتكما الرائعة».

سألتها آنا: «وما علاقة ذلك بالموضوع؟».

وبرقت عيناها غضباً وكادت أن تفقد السيطرة على أعصابها. فقد رأت روزماري وميلاني تتغامزان في الجنازة وهما تنظران إليها، فلم يكن من الصعب عليها معرفة مصدر معلومات المرأة. لكنّها حتماً لن تقدّم لها متعة اكتشاف حجم الهوّة التي باتت تفصلهاعن أوليفر. فخاطبتها المرأة

مجدّداً: «أعني أنّنا نحن الاثنتان عانينا على أيدي رجال عائلة لانغفورد. وصدّقيني يا آنا، إن ساعدتني أم لا، ففي نيّتي أن أحارب للحصول على ما أراه حقاً من حقوقي».

بلغت وقاحة المرأة حدّاً لا معقولاً! كيف لها أن تفكّر، بحقّ السماء، بأنّها تستحقُّ الاستفادة من ممتلكات إدوارد؟ بعد كلّ ما فعلته به!

ـ إذن، فستحاربين وحدكِ. لا أريد أيّ دور في هذا.

ـ في الواقع، لقد بدأتُ فعلاً. لقد انتقلتُ للعيش في المنزل العائليّ.

إنّ نغمة الانتصار في صوتها، وشموخ رأسها وبريق عينيها جعلت من آنا تنظر إليها بحدّة قائلة: «أنت لستِ جديّة في ما تقولين؟».

سمعت آنا رنين الهاتف يتعالى من بعيد، لكنّها لم تعره اهتمامها، فما تريد سماعه هنا أشدّ أهمية.

ـ عندما عدتُ إلى هناك البارحة، كان الجميع يغادر المكان، ولم يلحظني أحد. فتجوّلتُ في الطابق العلوي ووجدتُ لنفسي غرفة نوم مريحة. في الحقيقة، اعتقدتُ في يوم من الأيام أن ادوارد سيفقد هذا المنزل الرائع. لقد قلّلتُ من قدر أعماله وشأنها. وأجده الآن أفضل حالاً بكثير ممّا كان عليه سابقاً. هل يفكّر أوليفر بالانتقال للعيش هناك؟

ظهرت السيّدة غرين عند الباب: «إنّها مخابرة لكِ آنا».

صلّت آنا لكي يكون أوليفر المتّصل، فعليها أن تطلعه فوراً على ما تفعله روزماري: «هل هو أوليفر؟».

ـ لا، إنّها المخابرة التي كنتِ في انتظارها.

ـ آه، نعم. شكراً لك. قد يأخذ هذا منّي بعض الوقت، روزماري أعتقد أنّه من الأفضل أن تغادري الآن.

لم يبد الانزعاج على المرأة، فقد أنهت كلّ الكلام الذي أتت لقوله لآنا: «ستخبرين أوليفر بما عرفتِ؟».

ـ من الطبيعي أن أفعل.

ـ شكراً لكِ لمقابلتي.

وخرجت من المنزل والابتسامة تعلو وجهها المشرق. فسألتها مدبّرة المنزل: «هل تصرّفتُ بشكل جيدّ؟ لقد بدا عليك القلق والاضطراب الشديدين».

- رائع سيّدة غرين. هل هناك أحد على الهاتف حقاً؟

ابتسمت المرأة: «لا. اتّصلتُ من الرقم الآخر الذي وضعه السيّد أوليفر في مكتبه لاستخدامه عندما يشغل الرقم الأوّل، وهو متصل بشبكة الإنترنيت».

- لم أكن أعلم أنّك ماكرة إلى هذا الحدّ يا سيّدة غرين!

- حسناً، مهما يكن ما فعلته، فقد أدّى إلى النتيجة المرجوّة. أليس كذلك؟

- من دون أدنى شكّ. والآن، عليّ أن أجد أوليفر وبسرعة. هل حقاً لا تعلمين أين هو؟

- أشعر وكأنّه خطط لرؤية محاميه.

عندما سمع أوليفر بالخبر، كانت صدمته شديدة. وفي وقت قصير جداً بعد ذلك، رأت آنا سيّارته منطلقة من أمام منزله متّجهة إلى المنزل العائليّ الكبير..

مرّت ساعة كاملة قبل أن يعود، وكانت آنا بانتظاره بفارغ الصبر، فلاقته عند الباب. هبَّ قلبها لملاقاته قبلها عندما لمحت الخطوط الواضحة المحفورة بعمق بين حاجبيه والحزن والكآبة في عينيه. أرادت أن تواسيه، أن تحتضنه... فقال: «آسف لأنّها أقحمتكِ في كلّ هذا. لقد تدبّرت أمر التخلّص منها... في الوقت الحاضر».

- هل تعتقد أنّها ستبقى في الجوار في الوقت الذي تطعن فيه بصحّة الوصيّة؟ أين تعيش في الواقع؟

أجابها باختصار: «لا أملك جواباً على أيّ من السؤالين».

ثم أضاف: «ولا يمكنني القول إنّ الأمر يثير اهتمامي. لكنّي أستطيع شرب فنجان من القهوة بشهيّة كبيرة. هلاّ طلبت من السيّدة غرين أن تقوم

بإعداده بينما أصعد لتبديل ملابسي؟».

بعد عشر دقائق، كان أوليفر يجلس أمامها وهو يحدّق فيها. قال معلّقاً وهو ممسك بفنجان القهوة بين راحتيه: «من كان ليظنّ أنّ الأمور ستتبدّل على هذا النحو؟».

كانت قهوة آنا على الطاولة إلى جانبها. سألته ويداها ممدودتان بوضوح على حجرها: «ماذا قال لكَ شارلز؟».

جلست بهدوء وسكينة أمام أوليفر، لكنّها كانت تتأجّج غضباً في داخلها من تصرّفات روزماري. فليس لديها أيّ حقّ في التسبّب له بهذا القدر من الأسى والحزن، وهي والدته.

- قال إنّها لا تملكُ أساساً تبني عليه الطعن. لكنّي لا أظنّ ذلك كافياً لردعها وإيقافها. فقد عزمت بإصرار وعناد على الحصول على حصة من الميراث. هذا ما تفعله مع كلّ رجل يمرّ في حياتها، وهم كُثُر. قمتُ ببعض التنقيب والبحث، ولا يسرّني فعلاً ما اكتشفته.

لم تشعر آنا بوجوب السؤال عن المزيد من التفاصيل، فلم يعد الأمر من شأنها: «هل ستنتقل للعيش في المنزل الكبير؟».

- لن أعيش هناك قطّ. سأعرضه للبيع مع هذا المنزل أيضاً.

كان جوابه سريعاً ومحدّداً بنبرته ومعانيه. فوضعت آنا فنجانها على الطاولة وتابعت: «لكنّ المنزل الكبير هو ملك لعائلتك منذ أجيال عديدة، أوليفر. كيف تستطيع فعل ذلك؟».

هزّ كتفيه بلامبالاة: «بإمكان المنزل أن يكون كوخاً متواضعاً، هذا المكان ليس سوى كومة من الأحجار والطين، وهو كبير جداً بالنسبة إليّ. لا أدري لما واصل والدي العيش فيه».

- هل قلتَ هذا لروزماري؟

- لا. لكنّها ستعود إلى هناك كاللصّ في ظلمة اللّيل لتأخذ كلّ ما تقع عليه يدها. إنّها تظنّني سأنتقل للعيش هناك، ولنأمل ألاّ تكتشف العكس قبل أن يفوت الأوان.

شربت آنا قهوتها قبل أن تقول: «إنَّ توضيب كلّ الأغراض سيكون أمراً شاقاً. أستطيع المساعدة إن أردتَ؟».

انتفض قلبها في صدرها وهي تعرض عليه المساعدة. أمّا لماذا قدّمت عرضها هذا، فلم تكن واثقة. . . فقد أتى صادقاً عفوياً من أعماق روحها.

ضاقت عينا أوليڤر في تساؤل: «ظننتُ أنك راحلة؟».

ـ ليس عليّ أن أرحل الآن. وبوجود روزماري في الجوار، فكّرتُ في أنك قد تحتاج لبعض الدعم والمساعدة؟

حدجها أوليڤر بنظرة ثابتة حادة لفترة طويلة، جعلت آنا تشعر بالإعياء تحت وطأة عينيه المحدّقتين، وراحت ترتجف أوصالها في تجاوب تامّ.

لا. لم يكن ذلك هو السبب الذي دفعها لتقديم المساعدة. هذا ما خطر لآنا وهي تحدّث نفسها. فقد شعرت بالأسى والأسف لحاله، ليس أكثر.

ـ حسناً، شكراً لكِ آنا. هذا لطف بالغ منكِ.

لكنَّ حاجبه المرفوع في تساؤل مشكّك عكس تردّده في تصديق دوافعها. فأوضحت برقّة وثقة: «لا أفعل ذلك لأنّي آمل بالحصول على نصيب لي. أنا أفعله لأساعدك فقط لا غير».

بقيت العينان الذهبيّتان مسمّرتين عليها: «ولمَ قد ترغبين في مساعدتي؟».

بدأ اللّهيب يستعر ويستعر في داخلها وراحت كلّ خليّة في أعصابها تنتفض نابضة بحبّها له، فقالت بعد أن استعادت أنفاسها: «لأنّني. . . لأنّني لستُ بغريبةٍ أو بعيدة عن حاجاتك. لعلَّ زواجنا لم ينجح، لكنَّ ذلك لا يعني أنّي أكرهك، أو أنّي غير مستعدة للقيام بشيء لمساعدتك».

ـ وما قد تكون هذه الحاجات؟

خاطبها بنبرة دافئة مثيرة وعيناه تفترسان عينيها بطريقة أدركت معها أنّه يعلم كلَّ ما يجول في خاطرها وما تطلبه عواطفها.

أخذت نَفَساً عميقاً وقالت: «سيتطلّب الأمر أسابيع عدّة للانتهاء من

توضيب أغراض والدك، ولتحديد ما يجب رميه وما يجب الاحتفاظ به».

ـ وأنتِ مستعدة للبقاء هنا معي بينما يجري كلّ ذلك؟ من دون أن تطلبي شيئاً في المقابل؟

توقّف ما يكفي ليسمح لها باستيعاب سؤاله، ثم أضاف بمرارة: «حسب تجربتي، ما من امرأة تفعل أيّ شيءٍ مقابل لا شيء!».

بتعبير آخر، لا يزال غير واثق بها. لعلّه يظنّ أنّها ستسرق أواني العائلة الفضيّة أثناء انشغاله. فأجابته بقسوة وعيناها تنضحان بلهيب أخضر زمرّدي: «إن كان هذا ما تظنّه، فمن الأفضل أن تنسى عرضي لك. سأذهب لأقول للسيّدة غرين إنّي لن أكون هنا على الغداء، فلدي طائرة تنتظرني».

رفعت رأسها عالياً وهي تنتفض واقفة من على كرسيّها. لكن، قبل أن تصل إلى الباب، هبّ أوليڤر وقفز نحوها واضعاً يده على كتفها: «لا، آنا، لا ترحلي. أنا آسف؛ لقد تأثّرت جداً بعرضكِ. أنتِ فاجأتني، هذا كلّ ما في الأمر. سيسعدني الحصول على مساعدتك».

ابتسم لها بصدقٍ بلغ أعماقها فأخمد غضبها، وحدا بها إلى مبادلته الابتسام، فافترّ ثغرها ضاحكاً وهي تقول: «أعدكَ بأنّي لن أخيّب أملكَ».

وهذا ما كان. ففي الأيام التي تلت تلك الحادثة، استمتع أوليڤر جداً بوجود آنا إلى جانبه. كان هناك الكثير لإنجازه، فعملا من دون كللٍ أو تعب جنباً إلى جنب وساعة بعد ساعة ويوماً بعد يوم.

صنّفا كلّ شيء في مجموعات متنوّعة. منها ما يجب الاحتفاظ به لاستعماله الشخصيّ، بالرغم من عدم كثرتها. . . ومنها ما يجب رميه، ومنها ما يُستحسن التبرُّع به. . . وما تبقى يتمّ إما بيعه منفصلاً وإمّا مع المنزل.

وكلّما كانا يمضيان الوقت معاً، كلّما عانى صعوبة جمّة في البقاء بعيداً عنها، أو غير مبالٍ بها. لم تخمد مشاعره البتّة نحو آنا ولو بمقدار ضئيل.

لم تعرف عيناه النوم ليلاً لكثرة ما راودت أفكاره، متسائلاً إن كان

يجرؤ على الذهاب إلى غرفتها. ما الذي قد يحصل إن هو فعل؟ إن دعاها إلى سريره الآن، ستظنّ حتماً أنّه سامحها وسيولد الأمل في نفسها من جديد... في الوقت الذي لا يزال هو فيه غير واثق من صدق دوافعها. أراد أن يثق بها، لقد أراد حقاً. لكنّ تجربته السابقة علّمته التزام جانب الحذر.

لكنّ كلّ نواياه الحسنة ذهبت في مهبّ الريح في صباح أحد الأيام عندما تعثّرت بسلك المصباح الكهربائي، فزلّت قدمها ووقعت عليه.

لكأنّ هذا المشهد ما هو إلاّ صدى لليوم الذي التقيا فيه للمرّة الأولى. لفّ ذراعيه حولها بشكل تلقائيّ، فاستنشق عطرها الأخاذ المثير ليحدث في نفسه الوقع المخدّر ذاته.

تأوّه وهو يشدّ عليها بذراعيه وأدرك أن كلّ ما كان يدفنه في داخله عاد للظهور وللحياة مجدّداً بقوّة واندفاع يصعب التحكّم بهما.

وعندما لم تقاومه، وعندما راحت ترتعد بين يديه وهي تتنفّس بمشقّة، علم أنّه لن يدعها تبتعد عنه، لن يدعها تفلت منه.

أمسك بوجهها بين راحتيه وأخذ ينظر للحظات محمومة إلى عينيها النابضتين بالنور، قبل أن يتأوّه ويعانقها.

شعرت آنا بضعفٍ يفوق قدرتها على إيقافه، فغرقت في حالة من الاستسلام المطلق. وتاقت إلى المزيد، فقد مرّ وقت طويل منذ أن عانقها بهذا الحبّ والشغف.

همس في أذنها: «آه، آنا! آه ممّا تفعلينه بي».

واحتضنها بقوّة أكبر وأكبر أطبقت على كلّ أمل لها في الخلاص. لكن، هل هذا ما تأمل به حقاً؟ ولِمَ هذا الشعور بالذنب الذي يتملّكها وهي في أحضان زوجها؟ إنّه شعور مخيف بلا ريب، لكنّ خوفها هذا زاد من توقها إليه ومن رغبتها في عدم الابتعاد عنه.

وها هي كلّ المشاعر التي أبقتها سجينة في أعماقها لفترة طويلة، تعود لتفيض بقوّة أكبر جعلت من أيّ محاولة لإيقافه مهمّةً مستحيلة. فشرعت

في المقابل، تبادله لمساته، إلى أن رفعها عن الأرض بذراعيه القويّتين وحملها على السلالم إلى الطابق العلوي. لم تُبد أيّ مقاومة تُذكر بل اكتفت بالنظر إليه باستسلام تامّ.

دخل بها إلى غرفة النوم الرئيسة وألقى بها على السرير بنفاذ صبر. وهكذا، أمضيا سوياً لحظات محمومة بالرغبة الملتهبة المتأجّجة التي لطالما قضّت مضجعها في ليالي الفراق الموحشة.

واستمرّت تلك اللحظات إلى أن استلقت إلى جانبه ملقية برأسها على ذراعه. فخطر لأوليفر فجأة أنّ هذا ربّما هو السبب الحقيقيّ الكامن وراء عرضها له بالمساعدة. لعلّ هذا ما كان يجول في ذهنها منذ البدء.. ولعل هذه هي طريقتها للتقرّب منه وإعادة إحياء زواجهما.

ولعلّها تعتقد أنّها بهذا الأسلوب، ستتمكّن من جني المال الوفير منه!

فشعر في هذه اللحظة بالذات بالدم يتجمّد في عروقه.

* * *

٥ ـ ضياع!

فارق النوم عيني آنا، فاستلقت في السرير تراقب شعاعاً فضياً منبعثاً من القمر وهو يتحرّك ببطء معانقاً الظلمة في كبد السماء. لقد ظنّت، قبل أن تكتشف مدى خطئها، أنّ أوليڤر سيقترح عليها الانتقال إلى غرفته، بعد ما حدث بينهما. لقد جعلها غباؤها تأمل في أن يكون ما جرى بداية لإعادة إحياء حبّهما.

تقوقعت في سريرها مفكّرة: «كيف تمكّن أوليڤر من فعل هذا بها؟ كيف يهجرها مجدّداً بعد ما جرى بينهما؟».

بعد مرور وقت ليس بطويل، عادا هي وأوليڤر لمتابعة أعمال التوضيب. لكنّ الجوّ بينهما بات عابقاً بمعانٍ مختلفة ومشبعاً بحاجات جديدة ومشحوناً بطاقة كهربائية مدمّرة، أصبح معه التركيز على العمل أمراً مستحيلاً.

كلّ ما أرادت فعله هو التحديق فيه بعينيها الخضراوين، أرادت أن تلمسه، أن تحبّه، أن تشعر به وأن تدعه يشعر بها. لكنّ أوليڤر بدا نادماً على ما فعله، ممّا جعل الحزن يعتمل في قلبها. فقد راقبته وهو يقوم بعمله بنشاط متجدّد، متجاهلاً وجودها تقريباً، فيعمل ويعمل من دون توقّف إلى أن يحين موعد عودتهما إلى المنزل لتناول وجبة الطعام التي تكون السيّدة غرين قد أعدّتها لهما كالعادة.

بعد انتهاء الطعام، ينفرد أوليڤر في غرفة مكتبه لقراءة بريده الإلكتروني ومتابعة سير أعماله عبر الإنترنيت.

عاد ليظهر أخيراً عند الساعة العاشرة والنصف وقد بدت الخطوط محفورة بوضوح على وجهه الشاحب المنهك. فقال: «أنا ذاهب إلى السرير».

كانت آنا تقرأ كتاباً في انتظاره، فبدت عليها خيبة الأمل وهي تنظر إليه متسائلة: «ألا تريد أن تشرب كوباً من العصير حتى؟».

ـ لا. لا أريد شيئاً.

لكنّ النظرة التي حدجها بها لم توح بصدق ما يقول، بل عكست رغبته في ضمّها ومعانقتها كالمرّة السابقة. شعرت آنا بحرارة جسدها ترتفع وتعلو شيئاً فشيئاً.

لكنه ذهب مباشرة إلى غرفته وتركها وحيدة مع الأرق والحيرة، تفكّر فيه وفي روعة مبادلته كلّ الحبّ والرغبة.

لقد أثبت بعد ظهر هذا اليوم أنّه تصعب عليه مقاومتها، فلم يتجاهلها الآن؟ هل ندم حقاً على ما حدث بينهما؟ هل كان يعاقب نفسه ويؤنّبها على ما فعله؟ هل ما زال مُقتنعاً بأنّها تسعى وراء ماله؟

سيكون من الشاق عليها العمل معه، جنباً إلى جنب، في هذا الجوّ المشحون بالتوتّر. هل فكّر في ذلك عندما أطلق لنفسه العنان؟ إن كان ما حدث مجرّد تنفيس للاحتقان الذي يعاني منه منذ انفصالهما، فهي تتمنّى لو أنّه لم يحدث. ولو أنّها عرفت ذلك منذ البدء، لما سمحت له بالتمادي معها إلى هذا الحدّ.

نزلت آنا في الصباح لتناول الفطور قبل أوليڤر، وعندما لحق بها، لمحت عينيه المحاطتين بهالات سوداء وأدركت أنّه لم يعرف النوم طوال الليل هو أيضاً.

عندما بلغا المنزل الكبير، حاول شغل نفسه في غرفة منفصلة. كانت رسالته واضحة باستحالة تكرار ما جرى بينهما البارحة.

لكن، بعد وقت قصير، سمعت آنا صوتاً وراءها، فلم تستطع منع قلبها من الانتفاض بقوة في صدرها. هذا ما كان يجري كلّما اقترب منها.

استدارت بسرعة وخفّة والابتسامة تعلو شفتيها، لكنّها ما لبثت أن خمدت وخبا إشراقها عندما رأت الواقف أمامها.

سألتها ميلاني وعيناها مسمّرتان عليها ببرود: «ماذا تفعلين هنا؟ أين أوليفر؟».

أجابتها بهدوء: «إنه في الجوار. أنا أساعده في توضيب أغراض والده».

- وما الذي يعطيكِ هذا الحقّ؟ ظننتكِ أتيتِ فقط من أجل جنازة العمّ إدوارد. لمَ لم ترحلي بعد؟ أرجو صادقة ألاّ تحاولي العودة من جديد إلى حياة أوليفر، لأنّ ذلك لن يجدي نفعاً. لم يعد أوليفر يحبك... هذا إن كان قد أحبّكِ قط».

- أعتقد أنّ ما نفعله أنا وأوليفر لا يعنيكِ في شيء.

أجابتها آنا وهي تسوّي جلستها وتحدّق في ميلاني ببرود تامّ. وارتاحت عندما اختار أوليفر هذه اللحظة تحديداً ليدخل إلى الغرفة لأن تلك المحادثات لم تكن لتستهويها، كما لم تكن على استعداد لمناقشة أمور زوجها مع صديقته السابقة. أم أنّها صديقته الحالية؟ فجأة، شعرت بتردّدها وتشكيكها.

عندما ارتمت ميلاني بين ذراعيه ورفعت رأسها نحوه، ذهبت الغيرة بما تبقى من قلبها الممزّق إلى أشلاء. لم تحتمل رؤيتهما سوياً، خاصة بعدما حدث بينهما منذ أقلّ من أربع وعشرين ساعة.

لمَ استسلمت له بهذا الشغف؟ تساءلت آنا في نفسها. لمَ غابت ميلاني عن ذاكرتها؟ لمَ سمحت لمشاعرها بالتحكّم في تصرّفاتها؟ لمَ كانت بهذا الضعف والوهن؟

قالت ميلاني بلطف مصطنع: «كان عليكَ أن تطلب مني مساعدتكَ، أوليفر. لم أعرف قطّ أنّك تودّ التخلّص من أيّ من أغراض العم إدوارد. في الواقع، أنا لا أرى الدافع وراء ذلك، إلاّ... إن كنت تخطط لشراء أغراض جديدة لنفسك. قالت روزماري إنّ...».

قاطعها أوليفر بقسوة: «روزماري؟ هل ما زالت في الجوار؟».

راقبت آنا عينيه وهما تضيقان بارتياب. فاعترفت ميلاني: «لا أعرف ماذا تعني بقولك في الجوار، لكنّني رأيتها ذلك اليوم».

- هل هي في المنطقة؟

- في كامبريدج، حسبما أعتقد. لكن لمَ تسأل؟ هل هذا هام؟

لم يجب على سؤالها، بل صاح بها بحدّة: «في أيّ فندق؟».

- لستُ أدري. لكنّنا سنتناول الغداء معاً يوم غد. أستطيع أن...

- لا حاجة لذلك. ليس لديّ ما أقوله لها.

لكنّ تصلّب فكّه كان يوحي بعكس ذلك تماماً.

هزّت ميلاني كتفيها: «إنّها لا تزال غاضبة جداً بسبب الوصيّة».

- هل هذا ما قالته؟ هل طلبت منكِ التكلّم معي لأجلها؟

- لا، بالطبع. لا تغضب أوليفر.

التفت نحو آنا بنفاذ صبر قائلاً: «آنا، ما رأيكِ بفنجان من القهوة؟».

كان يسألها هي أن تُعدّ القهوة له ولميلاني! أرادت آنا أن ترفض، لكن بما سيفيدها ذلك؟ تجهّم وجهها من الغضب، وخرجت من الغرفة، لكنّها لم تتوقّف عن تصوّرهما معاً.

وتحقّقت هواجسها عندما عادت لتجدهما جالسين على الكنبة الجلدية. كانت ذراع أوليفر تكاد تحيط بكتف ميلاني التي بدتْ وكأنّها تبكي. لكنّها، حين نظرت إلى آنا، شعّ في عينيها بريق الانتصار، فلم يكن من الصعب التكهّن بأنها تذرف دموع التماسيح.

- ها هي القهوة.

حاولت آنا أن تبدو مرحةً وهي تضع الصينيّة على الطاولة، لتسكب القهوة لميلاني في الفنجان وتناولها إيّاه بطريقة لائقة.

وعندما قال لها أوليفر إنّه سيخرج مع ميلاني لتناول الغداء في الخارج وإنّهما لن يعودا على الأرجح، تأوّهت بيأس وتملّق ظاهرين. فأضاف: «إنّها حزينة جداً على والدي. إنّ مجيئها إلى هنا قد أعاد الذكريات إلى

ذهنها».

آه، نعم. أراهن على ذلك.. حدّثت آنا نفسها. ذكريات ما عاشته سابقاً مع أوليڤر، وما تريد أن تعيشه الآن مرّة أخرى.

قال مخاطباً آنا بنبرة متعاطفة: «لا حاجة لأن تبقي أنتِ هنا كذلك، فأنتِ تستحقّين بعض الوقت لنفسكِ.. لقد عملتِ بجهد».

بالنسبة إلى آنا، لم يكن ما تقوم به عملاً، بل كان مصدراً لمتعة لمجرّد البقاء برفقة أوليڤر. كانت قد بدأت تأمل بشيء أكثر في علاقتهما؛ كانت قد بدأت تظنّ أنّهما يعيدان بناء الجسور بينهما بعدما ظنّا أنّها هُدمت إلى الأبد، خاصة بعدما حدث البارحة.

لكنّ ميلاني تدخّلت بسرعة لوضع حدّ لذلك، لعلّ السبب الذي دفع أوليڤر إلى حملها إلى سريره البارحة هو الاحتقان ليس إلاّ، لأنّ الشقراء اللعوب لم تكن في الجوار. كان يستخدمها كبديل لميلاني أثناء غياب هذه الأخيرة.

كانت الفكرة هذه تشبه لطمة قويّة على الرأس بما تسبّبه من آلام مبرّحة. أجابته برباطة جأش: «شكراً لك. لكن، أظنّ أنّي سأبقى، فليس لدي عمل آخر أقوم به».

اعترضت ميلاني بتعاطف مفاجىء: «لا، لا يمكنكِ أن تفعلي هذا. أنتِ بحاجة لقليل من الراحة كذلك. أنتِ تعلمين ما يقال عمّن يمضي كل وقته في العمل ولا يمرح البتّة».

رمقت آنا أوليڤر لتجده يهزّ رأسه بالموافقة. هل هذا يعني أنّه يجدها مملّة؟ لم يكن مملاً ما حدث بينهما البارحة. فقد تجاوبت معه لا إرادياً، كما لو أنّها احترقت في لحظة واحدة ففقدت السيطرة على تصرّفاتها، مثله هو تماماً. ما هي هذه اللعبة التي يلعبها الآن، إذن؟

قالت: «قد أفعل ذلك، سأفكّر في الأمر».

أصرّت ميلاني بثبات: «أنتِ فعلاً بحاجة إلى تخصيص بعض الوقت لنفسكِ».

أضاف أوليڤر مؤكّداً: «أوافقكِ الرأي تماماً».

بعد أن غادرا المنزل، أدركت آنا أنّها لا تريد البقاء في النهاية. صعدت إلى الطابق العلويّ وراحت تتجوّل في غرفة النوم الرئيسية. لكنّ مجرّد النظر إلى أغطية السرير التي لا تزال مبعثرة، أثار في نفسها غضباً أخذ يعتمل في صدرها.

كلّ ما دفعه إليها كانت الحاجة، والحاجة فقط، لقد استغلّها. كان عليها أن تلاحظ ذلك مساء أمس عندما ذهب إلى سريره من دون أن يعانقها حتى. رتّبت الأغطية بحركة تلقائيّة، عازمة على ألاّ تضع نفسها في موقف كهذا مرّة أخرى.

عادت إلى المنزل، لكنّ السيّدة غرين كانت في إجازة ذلك اليوم، ولم تكن راغبة في تحضير الطعام، فقرّرت أن تزور والديها... إلى أن تذكرت أنّها لا تملك سيّارة هنا، وأنّ سيارتها لا تزال متوقفة أمام الكوخ في إيرلندا.

كان والداها يعيشان في عمق الريف الواقع في الجهة الأخرى من كامبريدج، والطريق إليهما لا تسلكها حتى الباصات. كما أنّ سيارة الأجرة ستكون باهظة الكلفة، فما هي الخيارات التي بقيت أمامها؟

كان هناك سيّارة إدوارد بالطبع، المتوقفة في المرآب الخاص بالمنزل الكبير، إلى جانب سيارة الجيب خاصته أيضاً. لم لا تستعمل واحدة منهما؟ قال أوليڤر إنّه سيبيعهما، لكنّه لم يفعل شيئاً حتى الآن، فشعرت بأنّ أوليڤر لن يمانع بالتأكيد. لقد ترك مفاتيح المنزل معها، وكانت هي قد رأت من قبل مفتاحي السيّارتين معلقين في المطبخ.

أخذت سيارة الجيب في النهاية، بعدما أحسّت بأن سيارة الرولز رويس متكلّفة بعض الشيء بالنسبة إليها. لكنّها لم تجد والديها عندما وصلت إلى منزلهما، فلعنت غباءها. كان عليها أن تتصل هاتفياً قبل المجيء، لا بدّ أنّ الأحداث التي جرت مؤخراً، سلبت منها العقل والمنطق والتفكير السويّ.

لم يكن الحظّ حليفها اليوم، هذا ما خطر لها. إلاّ أنّها تستطيع الذهاب لرؤية أخيها، وإن لم تجده في مكتبه.. ما الذي ستفعله؟ هل تتناول الطعام في مكان ما وحدها؟ أم لعلها تذهب إلى السينما؟ ماذا تفعل؟ يا له من شعور فظيع بالضياع ألمَّ بها!

خلال الأيام القليلة الماضية، بدأت تعتاد على حضور أوليڤر، وكادت تشعر بالأمان والاطمئنان... لصداقته، إن لم يكن لشيء آخر. أما الآن، فهي لم تعد متأكّدة. لم يكن على ميلاني إلاّ أن ترفع إصبعاً واحداً حتى يجري إليها من دون تردد، ماذا يعني لها ذلك؟

هزّت رأسها في محاولة لطرد الأفكار المزعجة واتّجهت نحو كامبريدج. كان كريس في مكتبه وبدا مسروراً لرؤيتها: «ظننتكِ لا تزالين في إيرلندا. كنتُ عازماً على تناول طعام الغداء، هل تريدين الانضمام إليّ، أم أنّك سبقتني؟».

أجابت وهي تعانق أخاها بحنان: «هذا ما كنتُ أراهن عليه».

ـ مهلكِ. ماذا بك؟ هل أشعر أنك بحاجة للتكلّم؟ هل كلّ شيء على ما يُرام مع أوليڤر؟

لم تُلاحظ آنا أنّ ملامح وجهها تفضحها: «سأخبرك ونحن نتناول الغداء».

وأخبرته بالقصة المحزنة بأكملها. فعلّق قائلاً: «يا إلهي! لم أدرك قطّ أنّ ذلك سيتسبّب بهذا القدر من المشاكل».

وضع كريس الشوكة والسكّين على الطبق ونظر إليها بقلق واضطراب، وأضاف: «هل أخبرته لمَ أعطيتني المال؟».

هزّت آنا رأسها بالنفي.

ـ لم لا؟ يا إلهي، آنا. لا يمكنك تعريض زواجك للانهيار والزوال بسببي.

أخذ يهزّ رأسه وقد بدا الاضطراب في عينيه الزرقاوين الداكنتين.

اعترفت له آنا بأسى: «رفض أن يسمع ما لديّ. لقد ظنّ بي أموراً سيئة

جداً. اللّعنة، كريس، إن كان قادراً على الظنّ بزوجته ظنّ السوء إلى هذا الحدّ، فماذا نقول بعد عن زواجنا؟ ظننتُ أنّ الثقة تحول دون وقوع مثل هذه الأمور. آه، كم كنتُ بلهاء! لم يعد يثق بي قطّ، وبات من السهل عليه أن يتخلى عنّي ويرميني خارج حياته كلياً. أضف إلى ذلك، أنّ صديقته السابقة عادت للظهور في حياته مجدّداً».

لم تتنبّه آنا إلى صراحتها المفرطة، ولم تدرك كم كشفت من الأمور أمام كريس، إلى أن وضع أخوها يده على يدها فوق الطاولة: «اهدئي يا أختي، أنا متأكّد من أنّك مخطئة في ظنّك حتماً. قالت داون إنّها لم تر في حياتها رجلاً مغرماً مثل أوليڤر».

ـ ربما كان أوليڤر مغرماً. لكنّه لم يعد كذلك بعد الآن.

ـ هل أنت متأكدة؟

ـ كل التأكيد.

ـ ما زلتُ أعتقد أنّ عليكِ إطلاعه على الحقيقة. لقد حصلت على جزء من المبالغ المستحقّة لي؛ وسأتمكّن قريباً من إرجاع المبلغ كلّه.

ـ ليست هذه هي المسألة كريس.

كم تمنّت لو أنّ أخاها لم يطلب منها المساعدة قطّ، لوفّر عليها عذابات جمّة وآلاماً مبرّحة. من جهة أخرى، كان من الأفضل لها أن تكتشف حقيقة أوليڤر عاجلاً وليس آجلاً.

لطالما سمعت في الماضي عن بناتٍ يتزوّجن برجال يفرضون عليهنّ رقابة صارمة في المصروف، ويصرّون على معرفة مصير كلّ فلس يتمّ صرفه، والاطلاع على ما يفعلن في أوقاتهنّ، ومع من يمضين إجازاتهنّ... رجال يريدون أن يديروا لهنّ حياتهنّ حسبما يحلو لهم. هل كان أوليڤر هكذا؟ هل كان ذلك مجرّد جزء بسيط من حقيقة أكبر وأشدّ مرارة؟ هل كانت الأمور ستزداد سوءاً مع الأيّام؟ وهل تخلّصت منه فعلاً؟

لكنّ أخاها أصرّ قائلاً: «أظنّ أن المسألة برمّتها تكمن هنا. أنتِ حزينة إلى حدّ التفجُّع. كم تغيّرتِ منذ أن رأيتكِ آخر مرّة. كنتِ متألّقة،

تنضحين بالحياة والحيوية... انظري إلى نفسكِ الآن. تبدين كالمومياء التي عادت للتوّ إلى الحياة. هل والداي على علم بأنّ زواجك بات على شفير الهاوية؟».

- لا، لقد أتيتُ لتوّي من هناك، لكنّي لم أجدهما في المنزل.

- سيحزنهما الاطلاع على الأمر.

قالت وهي تتنهّد بحزن: «أعرف ذلك. لهذا السبب لزمتُ الصمت حتى الآن».

- تعنين أنّكِ كنتِ تأملين بإصلاح الأمور، وبالرجوع إليه؟

- شيء من هذا القبيل.

- إنّه أحمق إذا تركتكِ ترحلين.

- ربّما لم يحبّني أوليفر قط. لقد قال والده إنّه تزوّج بي في فترة من فترات الضعف. بدأتُ أظنُّ أنّه كان محقّاً.

- لماذا إذن انفصل عن تلك المرأة؟

برقت عينا آنا وهي تجيبه: «إنّه المال مرّة أخرى».

أخذ كريس نفساً عميقاً وهو يهزّ برأسه: «إنّ الرجل يعاني من عقدة نفسية. لا عجب في أن تكوني محتارة ومضطربة، هل ما زلتِ تحبينه؟».

رفعت آنا كتفيها الهزيلتين: «لستُ أدري».

- هذا يعني أنّك ما زلتِ تحبّينه. أعتقد أنّ عليكِ منحه فرصة واحدة أخرى. أخبريه عني، وأنّي طلبتُ منكِ الاحتفاظ بالسرّ، وإن لم ينفع ذلك، فـ... فارسليه لي حينها. سأجعله يفكّر بشكل سويّ.

- لكن، ألا تفهم يا كريس؟ لا أريده أن يعود وفق هذه الشروط، ما كان عليه التشكيك بي منذ البدء.

- أوافقكِ الرأي. فقد التقيتُ بأروع فتاة في العالم، وأشعر أنّي أثق بها وأتمنها على حياتي، أعتقد أنّ هذا هو الحبّ الحقيقي.

اتّسعت عينا آنا من المفاجأة: «أوه، كريس. لا بدّ أنّك كنت تتوق شوقاً لإخباري بذلك، وأنا أثقل كاهلك بأحزاني وهمومي ومشاكلي

الخاصة. أنا آسفة، ما اسمها وأين التقيت بها؟ أخبرني بكلّ شيء».

عندما عادت آنا إلى المنزل، كان أوليفر في انتظارها. كانت عيناه قاسيتين باردتين، وجسده كلّه مشدوداً: «أين كنتِ بحقّ السماء؟».

قطبت آنا حاجبيها عندما شعرت برعشة مخيفة. عادت إلى ذاكرتها صورة الرجال الذين يسعون للتحكّم بزوجاتهم وإدارة حياتهنّ: «هل يهمُّكَ الأمر؟».

- أرى أنّكِ أخذتِ سيّارة والدي الجيب.

سألته وقد رفعت حاجبيها استنتاجاً: «هل هذه هي المسألة إذن؟ كان عليّ طلب الإذن؟».

- لا تكوني سخيفة. لقد قلتِ إنّك ستبقين في المنزل الكبير. لم أجدكِ عندما عدتُ، وشعرتُ بالقلق بشأنكِ.

أوليفر يشعر بالقلق! يا لها من دعابة!

- آسفة، لكنّي لم أجد أحداً لطلب الإذن منه. بقيتُ سجينة هنا لفترة كافية. وفكّرتُ بأنّ الوقت حان لأخرج قليلاً وأتنشّق بعض الهواء.

- قلتِ سجينة؟

- أعني أنّ سيارتي ليست معي.

- آه، فهمت. لا أذكر أنّكِ قلتِ شيئاً عن انزعاجك من الموضوع.

لم تشعر بأيّ انزعاج من قبل، إلى هذه اللحظة. لكنّها لن تعترف له بذلك طبعاً: «قرّرتُ أن أزور والديّ. هل لديك أيّ مشكلة في ذلك؟».

ضاقت عينا أوليفر: «كيف حالهما؟».

هزّت كتفيها: «في الواقع، لم أجدهما في المنزل. لذا، تناولتُ طعام الغداء مع كريس في المقابل».

- الأخ الشبح؟

لم ترق لآنا نبرة السخرية في صوته، فبرقت عيناها غضباً: «إنّه هو نفسه».

- متى سألتقي به؟

ـ أظنّك لن تفعل قطّ، بما أنّ زواجنا قد انتهى.

أجابت بحدّة وغليان شديدين. لقد خطر لها وهي في طريقها إلى البيت أنّ كريس قد يكون محقاً وأنّ عليها جعل أوليڤر يستمع إلى الحقيقة. لكنّ سلوكه وتصرّفه الآن جعلاها تبدّل رأيها بسرعة البرق، فهو لن يصدّقها حتى إن كتبت أحرفها بالدم.

ـ إنه لأمر مؤسف. أعتقد أنّ بيني وبين كريس أموراً عديدة لنناقشها.

ـ كسؤاله مثلاً عمّا إذا كنتُ أعطيته المال أم لتوني، هل هذا ما تعنيه؟

أجابته بلا مبالاة، وهي تحاول تجاهل العرق المتصبّب منها جرّاء شوقها المفاجىء إليه. ما هو هذا التأثير الذي يمارسه عليها أوليڤر كلما تجادلا؟ هل كانت عيناه السبب في ذلك والنار التي تشتعل فيهما حنقاً، أو اللهيب الذي يعلو وجنتيه، والتصلب الذي يشدّ كلّ عضلة في جسده؟

مهما تكن الأسباب، فهو يؤثر فيها بشكل لا يمكن السماح به.

قال بتأمّل هازىء: «آه، توني. هل رأيته مؤخّراً؟».

تطايرت من عينيها شرارات الغضب: «أنت تعرف يقيناً أنّي لم أره. فأنا لم أذهب إلى أيّ مكان آخر منذ وصولي إلى هنا».

رمقها بنظراتٍ مشكّكة، لكنّه لم يصرّ على مناقشة الأمر لسبب ما:

ـ ربّما عليكِ الاحتفاظ بسيّارة الجيب لتتجوّلي بها. لم ألاحظ قبلاً أنّك تشعرين بالقيود تكبّلكِ. لمَ لم تأخذي سيّارة الرولز رويس؟ كانت ستحدث وقعاً أشدّ تأثيراً وفعالية.

شعرت بالاكتفاء من هذا الجدال: «تأثيراً على من، يا أوليڤر؟ ما من أحد أريد التأثير عليه. كيف كان غداءك مع ميلاني في المقابل؟».

ابتسم للمرّة الأولى منذ وصولها إلى المنزل، فتسلّلت الغيرة محرقة إلى قلب آنا. حاولت إقناع نفسها باستحالة أن تشعر بالغيرة لأنها لم تعد مغرمة بأوليڤر. لكنّ ذلك لم يحدث فرقاً يُذكر.

لقد تملّكتها الغيرة، كما تتملّكها دائماً وتعتمل في نفسها، بنارها المحرقة، كلّما مرّت في بالها صورة أوليڤر وميلاني سوياً.

ـ ذهبنا إلى ضفّة النهر. فهم يقدّمون طعاماً شهياً هناك، و...

ـ نعم، أعلم ذلك. فقد اعتدتَ على اصطحابي أنا إلى هناك في السابق.

كانا قد اتفقا على جعل هذا المكان، مكانهما الخاص. وها هو الآن يصطحب ميلاني إليه. إلى أيّ حدّ قد تبلغ قساوته وفظاظته؟

ـ آه، هذا ما كنتُ أفعله؟

تكلم وهو يضحك استغراباً كما لو أنّه تذكّر الأمر لتوّه فقط.

ـ وأين هي الآن إذن؟ توقّعتُ أن تمضي بقيّة اليوم معها أيضاً.

ـ لديها مشاريع أخرى.

لمست آنا خيبة الأمل في صوته؛ فأضافت: «هل تجاوزتما خلافاتكما؟ وهل عدتما معاً مجدّداً؟».

ـ لـمَ تسألين؟ هل يزعجك الأمر؟

ـ لا، على الإطلاق. إنّه الفضول وحسب. ليس عليكَ إخباري بأيّ شيء.

هذا ما فعله، ممّا أثار قلقها إلى حدّ لا يطاق.

كانت السيّدة غرين قد أعدّت لهما طعام العشاء. كلّ ما كان على آنا أن تفعله هو وضع قطع الدجاج على النار ومزج سلطة الخضار. انفرد أوليڤر في مكتبه طلب منها أن تتصل به عندما يجهز كل شيء.

لذا، لم تكن مستعدة لمواجهته، عندما استدارت وهي واقفة عند المغسلة ورأته يراقبها. ارتفعت يداها إلى حنجرتها بشكل تلقائي، قبل أن تقول: «لقد أخفتني. منذ متى وأنتَ واقف هناك؟».

لمحت لجزء من الثانية بريقاً يسطع في عينيه الذهبيّتين، ما لبث أن تلاشى في لحظة. لعلّها تخيّلته، إلاّ أنه جعل الحرارة تندفع في كلّ خلية من دمها.

ـ ما يكفي لأعرف أنّك ستبدين أفضل بكثير في هذا الزيّ إن لم تلبسي شيئاً تحته.

ارتدت آنا الزيّ الخاص بالسيّدة غرين لحماية ثيابها الحريرية.

فشعرت بالاحمرار يصبغ وجهها حين تخيّلت ما عناه بكلامه. فهي لا تريد أن يفكّر فيها بهذ الشكل، ليس بعد أن عاد لصداقته القديمة مع ميلاني، ما الذي يحاول تحقيقه؟ أن يلهو معهما هما الاثنتين؟ ولأيّ سبب تحديداً؟

ـ ظننتُ أنّك تعمل.

ـ لم أستطع التركيز.

ألأنه يفكّر في ميلاني؟ متسائلاً عن الشخص الذي ذهبت لرؤيته؟ لكنّه، إن كان يخطط لاستغلالها مجدّداً في غياب الفتاة الأخرى، فإنّه سيلقى خيبة أمل كبرى. لن ترتكب الخطأ نفسه مرتين.

فقالت ببرود وقد فاجأها ثبات صوتها: «سيجهز العشاء في وقت قصير. إن أردت، بإمكانكَ شرب كوب من العصير في هذه الأثناء».

ـ فكرة جيّدة. هل أسكب لك كوباً؟

ـ لا أظنّ ذلك.

أرادت أن تبقى بعيدة عنه لأطول فترة ممكنة؛ لتستجمع قواها وتهيّىء نفسها للساعة التي ستمضيها معه على العشاء. أرادت أن تجهّز دفاعاتها وتحصّنها كي لا تسمح له باختراقها كما فعل البارحة.

كانت لا تزال في حيرة من أمرها، لا تجد جواباً لتساؤلاتها حول الأسباب التي دفعته لحملها إلى غرفة نومه وسريره في لحظة ومن ثم تجاهلها في اللحظة التالية. لا بدّ لها أن تعترف بأن الجاذب الجسديّ لطالما جمعهما برباط قويّ تصعب مقاومته. لعله الجزء الوحيد الذي قام عليه هذا الزواج! الجزء الذي أخطأ تفسير إشاراته وظنّا أنّه الحبّ.

عاد أوليفر وهو يحمل كأسين من الكريستال، وقد ملأهما بعصير الليمون، قائلاً: «لا أحبّ أن أشرب وحدي».

كان كوب العصير مغرياً جداً في هذا الجوّ المحموم. لم تكن الحرارة المرتفعة في المطبخ متأتية فقط من الفرن! فشربت العصير بسرعة وتوتّر!

ـ هل أسكب لكِ كوباً آخر؟

ـ لا، شكراً. أشعر بدوارٍ مفاجىء لا أدري سبباً له!

ـ عظيم! لعلّ السبب في ذلك يعود إلى الحرارة المرتفعة! حرارة الفرن بالطبع.

ـ عظيم؟ ما هذا؟ يسعدكَ أن أشعر بالدوار وأن أفقد توازني؟

ـ أبداً، أبداً. بل بالعكس، فأنا أفضّل أن تكون نسائي بأتمّ عافيتهنّ وكامل وعيهنّ وهنّ برفقتي.

هل قال: نسائي؟ وكم يبلغ عددهنّ؟ هل هناك غيرها هي وميلاني في حياته؟ أم أنّ ذلك مجرّد صورة مجازية في التعبير لم يقصدها حرفياً؟ أم لعلّها تبالغ في ردّة فعلها! اختارت الاحتمال الأخير، وأملت في أن تكون مصيبة في تقديرها.

ـ وأنا كذلك، أفضل أن أكون دائماً بكامل عافيتي وأتمّ وعيي.

ـ باستثناء أنّك لا تنجحين دوماً في تحقيق ذلك.

رفع حاجبه بثقة، فاصطبغ وجه آنا باللون الأحمر من جديد. هل كان عليه أن يذكّرها بالسهولة التي تستسلم له فيها في كلّ مرة، والسهولة التي يتحكّم هو بها؟ لكنّ ذلك لا يحدث إلاّ معه. أتراه يعلم ذلك؟

ـ لا يجب أن تشعري بالإحراج. فهذا من الأمور التي أعشقها فيك.

ـ هل ما زلتَ تعشقها؟

وتمكّنت من جعل نبرة صوتها عادية ولا مبالاية، كأنّ الموضوع لا يعنيها، وكأنّها تتكلّم عن شخص آخر.

ـ هناك أشياء لا تزول قط، يا آنا.

كان صوته مثيراً إلى حدّ الجنون. كيف يستطيع فعل ذلك بها؟ كيف يمكن لصوته الأبحّ أن يشعل في روحها النار. نظرت إليه حانقة لترى على وجهه قناعاً يحجب أيّ تعابير. أضاف: «تماماً كرائحة الحريق، فهي تتطلّب عصوراً لـ..».

التفتت آنا نحو الفرن جزعةً، وأسرعت لإخراج ما تبقى من قطع

الدجاج المحروقة، كيف سمحت له بلفت انتباهها إلى هذا الحدّ؟

ـ أنت من تسبَّب بذلك. لمَ لم تبق بعيداً عن طريقي؟

ـ كم تبدين شهية وجميلة عندما تغضبين.

تنهَّدت وهي تتمنّى أن يُحجم عن ملاعبتها بهذا الشكل لكي تتمكن من مقاومته هذا المساء.

ـ لن تراني شهية إن رميتك بكلّ هذه القطع المحروقة. من الأفضل لك أن تخرج من هنا على الفور بينما أتخلَّص أنا من هذه الفوضى، وأنظف المكان.

وضع كأسه على الطاولة وخطا خطوة باتّجاهها قائلاً: «لم لا تدعيني أفعل ذلك؟».

لكنّ آنا لم ترده أن يتدخّل في ذلك، أرادته أن يخرج على الفور: «لا. فقط أخرج من هنا، هلاّ سمحت؟».

ها هي تبالغ في ردّة فعلها ثانية، لكنّها لم تستطع التحكّم بنفسها. فقد جرَّها إلى حالة من التوتر بحيث أن مجرّد اقترابه منها سيكون سبباً في انفجارها. واقترب منها بالفعل، وحاول مساعدتها، لكنّها قاومته فوقعت قطع الدجاج أرضاً: «أنظر الآن ماذا فعلت؟» وانفجرت باكية بشكل مفاجىء.

ارتعب أوليڤر واهتزّ كيانه عند رؤية آنا تبكي، كان يكره أن يرى أيّ امرأة تبكي، فذلك يشعره بقلّة الحيلة والارتباك. هل عليه مؤاساتها أم يستجيب لطلبها ويبتعد عن طريقها؟ المنطق ينصحه بالذهاب، لكنّ غريزته دفعته لوضع الطبق من يدها جانباً وأخذها بين ذراعيه ليحضنها بقوة، ويقول برقّة: «إنّها ليست نهاية العالم. سنأكل في الخارج».

ـ أين؟ على ضفّة النهر؟

كان أوليڤر قد شعر بالأسى في طريق عودته إلى المنزل. وأدركَ حجم خطئه في اصطحاب ميلاني إلى هناك. كانت الفكرة من اقتراح ميلاني، ولم يكن هو يفكّر بشكل سويّ. كلّ ما كان يعرفه أنّه يعيش في دوامة

مخيفة منذ أن فقد رشده وأخذ آنا إلى سريره.

لقد جعله ذلك يزداد شوقاً وتوقاً إليها، وإلى الحياة التي عاشاها في ما مضى. لكنّ زواجه انتهى بشكل سيّء جداً، لذا تمسَّك باقتراح ميلاني كونها تمثّل النقيض الذي كان يشعر بالحاجة إليه.

لا شكَّ في أنّ موت إدوارد ترك أثراً بالغاً وجرحاً عميقاً في نفس ميلاني المحطّمة. فقد كانت تحبُّ عرّابها إلى حدّ بعيد، وبالرغم من أخطائها، شعر أوليڤر أنّه لا يستطيع التخلّي عنها كلياً في هذا الوقت العصيب. لكنّه لم يستمتع بوقته، بل أحس براحة وخلاص عندما أعلنت ميلاني أنّ لديها مشاريع أخرى لبقيّة اليوم.

عند وصوله إلى البيت، لم يجد آنا فجنّ جنونه واستشاط غيظاً. فقد كان توّاقاً لإمضاء المزيد من الوقت معها، بالرغم من علمه يقيناً بأنّ ذلك سيغرق روحه في العذاب.

إنّ ما أراد القيام به بشدّة عند عودتها هو أخذها واحتضانها بين ذراعيه ومعانقتها من دون توقّف. لكنّه يعلم أنّ ذلك لن يقدّم الحلول الشافية، لذا حمى نفسه بالغضب ليبقى بعيداً عنها... ولا شكَّ في أنّه نجح في ذلك، لوقت قصير.

لكنّه عجز في مكتبه عن حصر تركيزه في العمل، وكلّ ما كان يراه على شاشة حاسوبه هو وجه آنا الخلاّب وعينيها النابضتين بالحياة وشعرها المتموّج الحريريّ، وثغرها الواسع البالغ الإغراء.

دفعه ذلك للبحث عنها، فوقف في باب المطبخ لدقيقتين قبل أن تلحظ آنا وجوده. وكاد يُطلق العنان لرغباته وينقضّ عليها يشبعها تقبيلاً لولا أن استدارت ورأته.

حتى الآن، فإنّ احتضانه لها وتهدئته لغضبها، ما كانا ليخفّفا حدّة شوقه إليها. لكنّه قال: «بإمكاننا أن نذهب إلى حيث تشائين».

ـ لست جائعة.

كذلك كانت حاله هو أيضاً. فالجوع الذي كانا يشعران به هو جوع

من نوع آخر، كان يعلم في قرارة نفسه أنّه ارتكب جرماً لا يُغتفر حين سمح لقلبه بأن يتحكم بعقله عندما سألها الزواج به.

لقد ارتكب والده الخطأ نفسه مع روزماري، بعد أن فقد اتّزانه أمام ذلك الوجه الجميل والجسد المثير. وانظروا إلى أين أوصله ذلك! لا عجب في أن يثور إدوارد عندما رأى ابنه يرتكب الخطأ نفسه.

قال لها بصرامة: «يجب أن تأكلي. لقد فقدت بعض الوزن ولا يمكنك تحمّل خسارة المزيد».

واستمر في احتضانها، واستمرّ توقه إليها يزداد ويصبح أكثر حدّة.

حاولت آنا أخيراً أن تبتعد عن حضنه قائلة: «كما لو أنّ الأمر يهمّك أو يعنيك في شيء».

ـ أنا أهتمّ في أن ترعي نفسك بشكل جيّد.

لكنّه كان في حاجة ماسةٍ إلى احتضانها. كان بحاجة إلى المزيد من الأحلام. فخرجت كلماته تلك مخنوقة من حنجرته التي انقبضت من الإثارة.

أجابته: «لا أرى سبباً يدعوك لذلك».

لكم يتسبَّب لها ذلك بالألم، أن تعرف أنّه لم يعد يوليها أيّ اهتمام يُذكر. لقد استحقّ حرمانه منها عن جدارة، بما أنّه هجرها وتخلى عنها. لا شكَّ في أنّه أخطأ في تصرّفه، لكنّه شعر بحاجته لبعض الوقت للتفكير في ما فعلته ومراجعة تفاصيل ما حدث بعيداً عن تأثيرها. وقبل أن يتوصّل إلى أيّ قراراتٍ، قامت هي بتوضيب حقيبتها والرحيل، ولم تكن لديه أدنى فكرة عن مكانها. وبعد أن اكتشف مكان تواجدها، أصابه الذهول.

أراد أن يبحث عنها على الفور، لكنّ والده أقنعه حينذاك بأنّ ذلك سيخلق المزيد من المشاكل في المستقبل. فقال له: «لا تريد النساء إلاّ ما يستطعن الحصول عليه من الرجل. وهنّ لا يتغيَّرن قطّ. قد يعدنك بوهبك كلّ الحياة، وقد تظنّ أنّهن تغيّرن لبعض الوقت، لكنّ ذلك لا يدوم أبداً».

وهكذا، انصاع أوليفر لحكمة والده. لكنّ ذلك لم يمنعه من الاتّصال

بداون وإقناعها بضرورة إرشاده إلى مكان تواجدها. وربما، لو أنّ ميلاني لم تُظهر في السابق هذا الميل نفسه إلى المال، لكان لحق بها. فقد دفعه ذلك للتفكير مرّتين وثلاث وأربع، وفي النهاية، أقنع نفسه بأنه قام بالصواب.

رفع ذقنها بيده ليتمكّن من النظر إلى وجهها، وقال: «إن كنتِ لا تريدين الخروج، يا آنا، إذن دعيني على الأقلّ أُحضر لنا شيئاً نأكله».

كانت دموعها قد جفّت، لكنّ عينيها لا تزالان ملوّحتين بالاحمرار. يا إلهي، كم أنّ رغبته فيها تفوق كلّ حدود المعقول! فتابع: «ماذا كنّا سنأكل مع الدجاج؟».

ـ السلطة، والبطاطا.

ـ ما رأيكِ إذن في أن أُعدّ لنا عجّة من البطاطا لنأكلها مع السلطة؟ اذهبي أنتِ واغسلي وجهكِ، وسأتدبّر أنا الأمور هنا.

خاف أن ترفض اقتراحه، وأن تهرول إلى غرفة نومها وتحتجز نفسها في الداخل لما تبقّى من الليل. لكنّها تنهّدت أخيراً وهي ترسم على وجهها ابتسامة متعبة حزينة وقالت: «حسناً».

عندما عادت إلى الطابق السفلي، كانت آنا قد بدّلت ثيابها وارتدت بنطالاً وقميصاً ملتصقاً بجسدها ومقفلاً بسحاب من أعلى إلى أسفل. فأصدر أوليفر تنهيدةً متألمة بعدما عجز عن خنقها وهو ينظر إلى آنا. رفعت حاجبها في تساؤل: «هل من خطب؟».

نعم، كلّ شيء! ألا تعرفين هذا؟ لكنّه، لم يتفوّه بكلمة واحدة بل تمكّن بجهد من رسم ابتسامة خجولة، وهو يربت على معدته: «أعذريني، أنا جائع».

رغم أنّه لم يكن واثقاً من أنّها صدّقته وظنّت تنهيدته تعبيراً عن جوعه للطعام وليس أكثر.

ـ فكّرتُ في أن نأكل هنا... ذلك يوفّر علينا العناء والجهد.

كما يمنعهما من الاختلاء في مكان حميم. فما من أرائك مريحة هنا

يستطيع المرء أن يرتاح عليها بعد العشاء، بل كرسيّين حديديّين وطاولة من الغرانيت.

لكنّه كان مخطئاً في تقديره أيضاً. فصحيح أنّ الكرسيّين غير مريحيْن، وصحيح أنّ الشموع الرومانسية غابت عن طاولة العشاء، كذلك الموسيقى... إلاّ أنّ مجرّد جلوسه بالقرب من آنا، أينما يكن ذلك، كان كافياً لوحده. فقد يكونان في القطب الشمالي أو الجنوبي، في سيبيريا أو في أكثر المطاعم رومانسية وهدوءاً في أجمل مكان في العالم، لن يغيّر ذلك شيئاً من الأحاسيس التي تتفجّر في داخله كلّما اقترب من هذه المرأة.

ما كان عليه البتّة أن يصرّ على تناول الطعام معها؛ بل كان من الأفضل أن يخرج من المنزل وألاّ يعود إليها. أنّى له الآن أن يتخطى ما تبقى من الأمسية من دون أن يفقد السيطرة على نفسه؟

ـ إنّ هذه العجّة لذيذة الطعم حقاً. لقد تحسّنت موهبتك في إعداد الطعام.

علم أنّها تلمّح إلى إحدى الوجبات المقزِّزة التي أعدّها لهما في أوّل فترة من زواجهما. لم يكن السبب في ذلك عدم درايته بفن الطهي ـ بل لطالما استمتع بطهي الطعام لنفسه كلما سمحت له السيّدة غرين بذلك ـ لكنّه في ذلك اليوم تحديداً، عندما أراد التأثير بشدّة في آنا سارت كل الأمور بشكل سيّء.

كانت آنا قد تناولت في ذلك المساء كلّ ما وضعه أوليفر أمامها بلباقة وكياسة. لكنّهما غرقا في هستيريا من الضحك عند انتهاء الطعام، ليغرقها بعد ذلك بوابل من القبلات. أصبح ذلك الآن ذكرى جميلة يضيفها إلى دفتر ذكرياته الخاص.

اعترف أمامها قائلاً: «كان ذلك يوماً لن أنساه قطّ».

بقيت آنا ساكنةً لجزء من الثانية، وأضاف: «لم أعدّ هذا الصنف من الطعام مرّة أخرى، ولم آكله أيضاً».

ـ لم يكن الأمر كارثة فعلية.

انحبست أنفاسه. أتُراها تُلمّح إلى ما جرى بينهما ذلك اليوم بعد العشاء؟

ـ لو حدث الأمر نفسه معي أنا، لانفجرت باكية كالطفلة الصغيرة. أما أنتَ، فقد غرقت في الضحك.

ـ ضحكتِ أنتِ عليَّ أوّلاً.

لكن، هل هذا كلّ ما تذكره؟

ـ لأنّكَ بدوتَ مصعوقاً تماماً، فكان عليَّ أن أفعل أيّ شيء لأهوّن عليك وقع اللحظة.

ـ ما رأيكِ في قليل من ذلك الضحك الآن؟

لم يرد أن يقول لها هذا. لم يُردها أن تظنّه عازماً على إنهاء هذا اليوم تماماً مثل ذاك المساء. فتدارك نفسه مضيفاً: «أعني، أنّي آسف. آسف لفظاظتي معك منذ قليل، يبدو أنّي معتاد على إفساد الأمور دائماً».

أجابته بهزّة من كتفها وابتسامة باردة: «لا بأس».

ـ لا. لا أوافقكِ الرأي. ما كان عليّ أن أصيح في وجهك لأنّك خرجتِ من المنزل. أنا آسف يا آنا.

ـ لقد سامحتكَ. والآن أكمل طبقك قبل أن تبرد العجّة.

لكنّه لم يعد يشعر برغبة في تناول الطعام وهما جالسان بهذا القرب أحدهما من الآخر، بحيث تشتّتت كلّ أفكاره وأخذ يفقد اتزانه وقدرته على السيطرة على نفسه شيئاً فشيئاً.

بذل جهداً كبيراً للانتقال إلى موضوع آخر، إلى تفاصيل الحياة اليومية الروتينية: «هل ترغبين في تناول الشاي الآن بعد الطعام؟».

هزّت آنا رأسها: «أنا أفضّل القهوة».

ـ الشاي الساخن في هذا الوقت من المساء أفضل بكثير من القهوة، بعد يوم طويل شاق.

ـ لم يكن شاقاً بالنسبة إليّ. في الواقع، كان هادئاً جداً، إلى أن...

إلى أن عادت إلى المنزل ووجدته غاضباً مهتاجاً. لكنّها لم تكمل، بل

قاطعها قائلاً: «في هذه الحال، تحضّرين أنتِ قهوتكِ بينما أعدّ أنا الشاي لنفسي».

ابتعد عنها قليلاً ليتنشّق بعض الهواء. أدرك أنّ ما يحدث هو الغباء بعينه. فهذه هي المرأة التي سيطلّقها قريباً. كيف يحق لها أن تفقده اتّزانه بهذا الشكل؟

هذا صحيح، ما عليكَ إلاّ إلقاء اللوم على آنا. هذا ما راح ضميره يخاطبه به. هي لم تفعل شيئاً؛ كل ذلك مصدره مخيّلتك أنت. مخيّلة غارقة في الارتباك والحيرة إلى حدّ لا يُطاق.

أخذ يحضّر الشاي وهو غارق في أفكاره، فلم يتنبّه لآنا وهي تنظّف الطاولة وتضع الأطباق المتّسخة في آلة الجلي، قبل أن تضع ملعقة من القهوة السريعة التحضير في فنجانها وتقف منتظرة الماء ليغلي.

تنبّه أوليڤر فجأة، وقال لها: «ما كان عليكِ أن تنظّفي الطاولة».

ـ لن نترك كلّ شيء للسيّدة غرين.

ـ كنتُ سأهتمّ أنا بذلك لاحقاً.

برقت عيناها بنفاذ صبر: «هلاّ كففتَ عن مضايقتي، يا أوليڤر، هذا ما حصل».

استدارت نحو الماء، حملت الإبريق وسكبت القليل فوق قهوتها، ثم أضافت القليل من الحليب قبل أن تنظر إليه مجدّداً.

كانت حركاتها البسيطة تلك تذهله أيضاً، وتجعله يدرك روعة ما يتخلّى عنه طوعاً. وفجأة، لم يعد يدري إن باتَ قادراً على ذلك بالفعل.

قالت آنا: «أظنّني سأشرب قهوتي في غرفتي».

ـ لا، آنا. لا تفعلي.

ومن دون أن يتردّد للتفكير قليلاً في ما قد تفهمه من تصرّفه هذا، اقترب منها بسرعة وأخذها بين ذراعيه بلهفة لا مثيل لها.

***

٦ ـ الوعد المستحيل

ألمّ بآنا شعور أكيد بأنّها ستندم إن لم تُبعد أوليڤر عنها على الفور. فقد كان على حافة الانهيار طيلة الأمسية، منذ اللحظة التي حاول فيها مؤاساتها عندما أوقعت قطع الدجاج أرضاً.

لقد ظلّت زوجته لستة أشهر كاملة، فأصبحت تعرف جيداً طبيعة رغبته التي لا تخمد أبداً... رغبته فيها. كانت الحرارة المتصاعدة منه، وهما جالسان على العشاء، واضحة وملموسة بشكل أكيد.

في الواقع، مرّت بضع لحظات أثناء العشاء، احتكّت فيها ذراعه بيدها عن طريق الصدفة، فتطلّب الأمر منها جهداً جبّاراً لكي تبقى مكانها وتقاوم الهروب منه بعيداً. وتوقّعت أن يرى أثر لمسته المحرقة واضحة على جلدها.

ـ أعتقد أنّه من الأفضل أن نأخذ قسطاً من الراحة في غرفة الجلوس.

تناهى صوته الأبحّ إلى أذنيها مثيراً جذّاباً، فأوشكت أن تفرّ هاربة إلى غرفة نومها طلباً للنجاة، لكنّها بدلاً من ذلك، سمحت له لاارادياً بمرافقتها إلى خارج المطبخ.

لكن، ما أن وصلا إلى الغرفة الأخرى، حتى ابتعدت آنا عنه بسرعة خاطفة وارتمت على إحدى الأرائك الوثيرة ذات المقعد الواحد. علمت من تقطيب حاجبيه أنّ ذلك لم يكن ما يجول في خاطره تحديداً، لكنّه لم ينبس ببنت شفة، بل جلس بنفسه على الأريكة المقابلة.

إنّها قادرة الآن على تمييز الشرارات في كيانها وما تحدثه في نفسها

وهي تستعر منذرة بحلول ما تكرهه، أو ما تكره حدوثه الآن. عمدت إلى إغلاق عينيها حيناً، وأشاحتهما بعيداً عنه حيناً آخر، لكنّ أوليڤر لم ينزع عينيه عنها البتّة بل بقيتا مسمّرتين عليها طيلة الوقت. تينك العينان الذهبيّتان اللّتان أوقعتاها في غرامه منذ البدء.

أوشكت قهوتها أن تبرد، لكنّها رفضت الحراك وبقيت مسمّرة في مكانها مخافة أن تلتقي عيناهما فيكتشف مشاعرها. يا لهذه الليلة المحتومة، كيف تُراها تنتهي؟

ـ اشربي قهوتكِ.

بدا وكأنّه قرأ أفكارها، فرمقته بنظرة خاطفة قبل أن تلتقط فنجانها. لكن، لسوء حظّها، لم تستطع إبعاد عينيها عنه، فتسمّرتا في عينيه بقوّة مغناطيسية لا تقاوم.

همس لها: «تعالي إلى هنا».

ابتلعت آنا ريقها بصعوبة وبلّلت شفتيها الجافّتين، ولمعت عيناها وهي تقول: «لماذا؟».

ـ كأنّك بحاجة للسؤال.

أخذت تقترب منه بخطى وئيدة ومتردّدة، لكنّ عينيها بقيتا مسمّرتين في عينيه. شعرت بنفسها تغرق في ذلك البحر الذهبيّ العميق، وعلمت هذه الحقيقة، لكنّها مشت إلى القدر الذي لا مفرّ منه.

عندما وصلت إليه، تأوّه بنفاذ صبر وهو يحملها ويضعها في حجره قائلاً: «أنتِ ساحرة شرّيرة، هل تعلمين هذا؟ ساحرة لا تقاوم. تجعلينني أقوم بأشياء لم أخطط للقيام بها؛ تجعلينني أخالف قوانيني الخاصة».

استسلمت آنا لمداعباته بعد أن فقدت إحساسها بالواقع وبكلّ ما يحيط بها. كيف تستسلم له بكلّ هذه السهولة وهي تعلم بانهيار أيّ أمل في المستقبل، وفي رأب الصدع الذي فرّق بينهما وأوصل زواجهما إلى هذه الحالة المأساوية؟ لكنّ كل هذا المنطق الذي يبدو بديهياً للوهلة الأولى، يذوب وينهار تحت وقع قبلاته المحمومة.

حين رفع رأسه لينظر إليها، لمحت بريقاً مختلفاً في عينيه اللّتين استحال لونهما برونزياً قاتماً كما لم ترهما من قبل، فتصاعد منها نداء لم تستطع احتواءه: «آه، أوليڤر».

ـ آه، أوليڤر، ماذا؟

ـ لو أنّك تعلم ماذا تفعل بي.

عاد ليرفع رأسه مجدّداً: «ماذا أفعل أنا بكِ؟ هل لديك أدنى فكرة عمّا أشعر به أنا؟ لقد مارستِ سحركِ عليّ مرة أخرى، وجعلتني أدركُ ماذا يفوتني. فهذا الجزء من زواجنا لم يتعرّض قط للانهيار والزوال».

تصلّبت آنا بعدما شعرت بأنّ اللحظة الحميمة الرائعة التي تجمعهما الآن توشك على الانتهاء... إن لم تكن قد انتهت بالفعل. فقالت له: «هل تعني القول إنّ هذا هو كل ما رغبت به يوماً مني؟».

حبست أنفاسها وهي تنتظر إجابة منه. فاعترف قائلاً: «كان هذا الجزء هاماً جداً في زواجنا، آنا. إنّه جزء بالغ الأهميّة، فأنا أعتقد بشدّة أن الجانب الجسدي في الزواج عندما يزول ينهار الزواج سريعاً جداً».

لم توضح لها إجابته أيّ شيء. فزواجهما قد انهار بغضّ النظر عن الجاذب الجسدي الذي لا يزال يقضّ مضجعهما.

ستكون حمقاء إن هي استمرّت في السماح له بمداعبتها، في حين أنّه سيهجرها مجدّداً ما إن يحصل على مراده منها.

لكن لديه ميلاني لتحقيق هذا الغرض. أم أنّ ميلاني تركته اليوم لانشغالها بأمور أخرى؟ لم تستطع ابتلاع هذه الفكرة المرّة أو تقبّلها، فهزّت رأسها في نفور تام، قبل أن تقول: «لا أستطيع الاستمرار، أوليڤر. أنتَ محق تماماً، فالجانب الجسدي لم يتلاشَ بيننا، لكنّه لا يأتي في قمّة أولوياتي في الحياة».

وأضافت بعد أن استعادت هدوءها وهي تحاول الابتعاد عنه: «إنّه خطأ فادح. لا أعلم لمَ أتركُ نفسي أتورط في مثل هذا الوضع».

خبا شيء من النور في عينيه: «ظننت أنّكِ تريدين ذلك».

ـ أنا أردته، وأريده.. لكنّ هذا ليس جيّداً. فنحن نوشك على الدخول في إجراءات الطلاق، أوليڤر. أم تراك نسيت هذا؟

ـ أعتقد أنّ بعض الأمور تصبح عادة.

ـ في هذه الحال، إنّها عادة عليك الإقلاع عنها.

قفزت واقفة وأخذت تُصلح هندامها.

فقال بنبرة مستسلمة: «أظنّني سأذهب لأنجز المزيد من العمل، في النهاية».

تلاقت عيناهما وتسمّرتا، فلمحت آنا في عينيه الحزن، لكنّها قست قلبها ولم تستجب لندائه. أجابته: «لا تعتمد عليّ في ذلك، فأنا سآوي إلى الفراش».

لكنها لن تنام حتماً، ليس لوقت طويل، فقد أمضت العديد من الليالي الأرقة منذ انتهاء زواجهما، ليالٍ عديدة استلقت فيها على السرير مستيقظة وهي تفكّر في أوليڤر وتسترجع في ذاكرتها صور الأوقات السعيدة التي أمضياها معاً. كان الأمل في استرجاع تلك الأوقات كبيراً لو أنّ التجربة التي مرّا بها والمحنة التي عصفت بزواجهما من الأمور الثانوية. كانت تلك الأوقات السعيدة لتتكرّر عندما كانت برفقته منذ برهة، لو أنّها لم تنسحب وتفرّ إلى غرفتها. إلاّ أنّ تلك اللحظات الوجيزة العابرة ما كانت لتفيدها في شيء طالما أنّه في اليوم التالي سيعمد إلى المباشرة في إجراءات طلاقها.

في الصباح التالي، كان أوليڤر في انتظارها على طاولة الفطور. لكم كان يبدو أنيقاً في بنطاله الكتاني الرماديّ وقميصه الأزرق. لم يبد بالطبع عازماً على مواصلة العمل في المنزل الكبير.

أتُراه استنتج أن بقاءه قريباً منها أمرٌ يفوق قدرته على الاحتمال؟ أتُراه قرّر البقاء بعيداً عنها كون ذلك هو الحلّ الوحيد المعقول؟

لم تعلم آنا إن كان عليها الشعور بالسعادة أم بالحزن. لكنّه قاطع أفكارها مقترحاً: «فكّرتُ في أن نحصل على بعض التغيير اليوم».

كانت نبرته مرحة، فجلست آنا إلى الطاولة في حيرة من أمرها وقد

قطّبت جبينها وأخذ قلبها يخفق سريعاً! لم ينوِ الابتعاد عنها إذن. فسألته بتردّد: «ما الذي يجول في ذهنك؟».

ـ أفكّر في رحلة إلى ضفة النهر؟ رغم أن الطقس قد يكون بارداً، أو بإمكاننا الذهاب إلى لندن، للتسوّق والتجوّل سيراً على الأقدام، أو لحضور أحد العروض... ما رأيكِ؟

ـ أرى أنّك نسيت أنني كنتُ أسكن في لندن في ما مضى.

ـ كما لو أنني أستطيع نسيان أيّ شيء يتعلق بكِ.

بدا صوته لا متناهياً كبحر لا قرار له، وعيناه بدفء أشعة شمس الصيف المتوهّجة. فما كان منها إلاّ أن أجابته: «في الواقع، أشعر بالحنين إلى المدينة. أعتقد أنّي سأحب ذلك».

آثرت الذهاب إلى المدينة سعياً إلى الأمان بين حشود الناس في شوارعها المكتظة. فالأمر ليس سيّاناً إذا ما ذهبا إلى ضفّة النهر حيث الاحتمال كبير جداً في أن يكونا على انفراد هي وأوليڤر.

إن توضيب أغراض إدوارد اليوم لن يساعدها في التغلّب على حالتها النفسية البائسة. لكنّ قضاء اليوم بعيداً عن هذه الأجواء هو ما تحتاجه تحديداً أكثر من أيّ شيء آخر.

ركبا القطار وبلغا لندن عند منتصف النهار، فاستمتعت آنا بالتجوّل في شوارعها برفقة أوليڤر. وأثناء تجوالهما، جرّبت آنا ثوباً مسائياً من قماش الشيفون الأخضر، سيكون مناسباً لعشية عيد الميلاد. ورغم أنّه باهظ الثمن، إلاّ أنّ أوليڤر أقنعها بشرائه، ثمّ سدّد الفاتورة بنفسه أثناء تغييبها في حجرة تبديل الملابس.

ـ ما كان يجب أن تفعل ذلك.

رفع حاجبيه متسائلاً: «لا أستطيع أن أشتري لزوجتي الثياب! هل هذا ما تودّين قوله؟».

ـ أنا لم أعد زوجتك.

تجهّم وجهه، لكنّه عاد ليبتسم في لحظة بهدوء ظاهر: «ما زلتُ

أستطيع أن أقدّم لك هديّة، أليس كذلك؟».

كان سرور آنا ممزوجاً بطعم مرير، فهذا ليس الجواب الذي كان ليسعدها. ذهبا بعد ذلك لحضور أحد العروض، وكان عرضاً موسيقيّاً مبهماً لم تفهمه آنا، لكنّها تظاهرت بالاستمتاع به.

كانت كلّ العروض الكبيرة الهامّة محجوزة بالكامل، فلم يتمكنا من الحصول إلاّ على بطاقتين لذاك العرض. بعد ذلك، قال أوليڤر لها على العشاء: «كنتِ متحمّسة جداً أثناء العرض. لم أكن أكيداً من أنه النوع الذي تفضّلينه».

حرّكت آنا أنفها الصغير باعتراف: «لم يكن كذلك. لم يكن من النوع الذي تفضّله أنتَ أيضاً، أليس كذلك؟».

في الواقع، كان أحدهما يعرف الآخر عن كثب إلى درجة يصعب معها إخفاء المشاعر الحقيقية.

ـ هل أفسدَ لكِ ذلك اليوم بأكمله؟

ـ لا، على الإطلاق. فقد استمتعتُ حقاً اليوم، رغم شعوري بالذنب. إنّ الإجازة القصيرة التي أخذتَها لتوضيب الأغراض في المنزل، ها أنتَ تهدرها الآن في التجوّل معي في لندن.

ـ هذا ما لم أكن لأفعله لو لم أرغب في ذلك. فما زالت رفقتكِ مصدر متعة خاصة لي.

لماذا قام إذن بطردها من حياته؟ هل هذه هي اللحظة المناسبة لإخباره عن كريس، ولتشرح له بالتفصيل لما احتاجت إلى تلك الثلاثين ألف باوند؟ وهل يُسامحها إن هي فعلت؟ وهل سيرضيها ذلك؟ أم لعلّها ستحتفظ بخيبة أملها لأنّه أساء الظنّ بها منذ البدء؟

ـ أنتِ المرأة الأكثر إثارة وجاذبيّة هنا، آنا. هل تعلمين ذلك؟

انخفض صوت أوليڤر إلى حدّ جعل جسدها يرتجف.

ـ لا أقوى على العيش معكِ، والبقاء بعيداً عنكِ. إنّ ذلك يُصيبني بالجنون.

انهارت آمال آنا وتلاشت أمامها. فما من طريقة أشدّ وضوحاً للتعبير عن مراده منها، وإن استعان لذلك بكلّ لغات العالم. وما إن ينتهي توضيب الأغراض في المنزل وإخلائه، سيكون الوداع لآنا.

أرسلت عيناها بريقاً أخضر ساطعاً وهي تقول: «إن كنتَ لا تحتمل وجودي معك، ربّما يُستحسنُ بي إذن أن أرحل، فأنا لم أبقَ هنا للسهر على رغباتك، أوليڤر. فبإمكانك أن تطلب ذلك من ميلاني.. لأنّها حسبما أرى، ستكون مسرورة جداً في تلبية طلبك».

أذهلته ردّة فعلها وبدا ذلك واضحاً على ملامحه وهو يرفع رأسه عالياً بعد أن ضاقت عيناه في تساؤل: «لا يمكنكِ أن تعني ما تقولين، آنا؟».

ـ لم لا؟

ـ لأنّ... لأنّ الأمور تسير على خير ما يُرام بيننا.

فسألته بنبرة لاذعة: «تعني رغبتكَ الجامحة فيّ مثلاً؟ إن كان هذا هو السبب الوحيد الذي دفعك إلى قبول عرضي بالمساعدة، فإني سأرحل في الصباح الباكر. بإمكانك أن تُنهي العمل بنفسك أو تحضر ميلاني للمساعدة. سيسرّها ذلك، أنا متأكّدة».

ـ دعينا نبقي ميلاني خارج الموضوع.

ـ ولم نفعل ذلك؟ أرى أنّها تشكّل جزءاً هاماً وأساسياً من حياتك، بالرغم ممّا تقول، ولا أظنّ أنّك بحاجة إليّ.

أغمض أوليڤر عينيه لبرهة كأنّي به يريد محو ما سمعه للتوّ، ثم قال:

ـ أنتِ تعتقدين حقاً أنّي وميلاني عدنا إلى بعضنا البعض؟

ـ هذا ما يبدو عليه وضعكما.

ـ وهل يزعجك أن يكون هذا صحيحاً؟

سيؤلمها ذلك ويرميها في عذاب الجحيم، لكنّها لن تعترف له بذلك: «لمَ تُراه يزعجني في حين أنّ زواجنا قد انتهى؟ بإمكانك أن ترى من تشاء، وأن تفعل ما تشاء مع من تشاء. لم يعد الأمر يتعلق بي أو يخصّني بعد الآن. أعتقد أنّي أرغب في الذهاب إلى المنزل، يا أوليڤر».

بالكاد لمست عشاءها، لكنّها إن حاولت الآن، فستختنق حتماً. لم يجادلها، بل سدّد الحساب وغادرا المطعم. ركبا في سيارة أجرة إلى المحطة، ولم ينبس أيّ منهما بكلمة واحدة. لكنّ القطار لن يصل إلاّ بعد نصف ساعة، فجلسا وشربا القهوة.

تكلّم أوليڤر أخيراً وهو يحرّك القهوة في فنجانه بقوّة: «كان من المفترض أن يكون اليوم مناسبة سارّة. أردتُكِ أن تمضي وقتاً سعيداً».

ـ هذا ما حصل بالفعل.

ـ هل بإمكان الاعتذار أن يساهم في إصلاح الأمور، آنا؟ إن قلتُ لكِ إنّ اعترافي بتلك المشاعر، وإن كانت حقيقية، هو عمل فظّ ولا أخلاقي؟

لم يبد على وجه آنا أيّ تعابير خاصة، بل هزّت كتفيها بحركة مبهمة قائلة: «هذا مديح أشكرك عليه، لكنّي لا أفهم. فمن المفترض أنّنا افترقنا، لم تفعل ذلك معي إذن؟».

ـ أعتقد أنّ بعض الأمور لا تزول أو تتغير قطّ.

ـ كالرغبة الجسدية، مثلاً؟

لم يجب أوليڤر على سؤالها. بل شرع ينظر إلى فنجانه بعينين شاردتين، وهو ممسك به بثبات، فعلمت آنا أنّها أصابت شيئاً من الحقيقة.

شربت قليلاً من قهوتها ثم ذهبت إلى الحمام ولم تعد منه إلاّ عندما حان موعد قدوم القطار. مرّت الرحلة بصمتٍ مزعج، فلم يعد هناك ما يُقال. لزم أوليڤر الصمت إلى أن وصلا إلى البيت حين سألها إن كانت لا تزال عازمةً على الرحيل.

نظرت إلى عينيه مباشرة كأنّما أرادته أن يعلم أنّها تعني ما تقول: «سأبقى للمساعدة إلى أن ينتهي العمل، إن وعدتني بالتحكّم بسلوكك. هذا إذا أردتني أن أبقى بالطبع».

لم تعلم آنا قط السبب الذي دفعها لتقديم عرضها هذا، فلا بدّ أنها فقدت صوابها. سيكون من الأسلم أن تبتعد عنه قدر المستطاع.

أومأ أوليڤر برأسه: «يسعدني ذلك. لكنني لا أستطيع...».

ـ أن تعدني بشيء؟ لا يمكنكَ التحكّم بهرموناتك الذكريّة، هل هذا ما تريد قوله؟

ـ أعتقد ذلك.

ـ إذن، سيكون عليّ أنا أن أُبقيك على مسافة مني؟ حسناً، بإمكاني القيام بذلك.

تكلّمت بثقة تامّة، لكنّ توتّرها البادي على وجهها فضح حقيقة مشاعرها. إنّ إبقاء أوليڤر بعيداً عنها سيكون أشبه بهروب المرء من حتفه!

لكنّ المفاجأة كانت في الأسابيع التي تلت، حيث مرّ كلّ شيء بهدوء تام. ولم يتخطّ أوليڤر الحدود التي فرضتها عليه، رغم أنها فاجأته مرّاتٍ عديدة وهو ينظر إليها بعينين مفترستين.

إنّ حاجته الشديدة إليها كانت تحرق منها القلب والجسد بلا رحمة، وكانت تبعث في نفسها مشاعر مخيفة تحبس أنفاسها، فتُضطرّ إلى الانشغال في أمور أخرى إلى أن تمرّ المحنة بسلام.

أتت ميلاني لرؤية أوليڤر مرّاتٍ عديدة، لكنّه في كلّ مرة كان يخبرها بأنّه منشغل جداً ولا يستطيع اصطحابها إلى أيّ مكان، وبأنّه ليس بحاجة إلى المزيد من المساعدة.

إن تكن الحاجات الجسدية الخالصة هي التي تسيّره، فبإمكان ميلاني بالطبع أن تشبع تلك الحاجات. أم أنّها أساءت الحكم عليه؟ هل يريد أن يمنح زواجهما فرصة ثانية؟ هل أنّ أمله هذا كان وراء كلّ ما يحدث؟ وإن يكن هذا صحيحاً، فلمَ لم يقل ذلك صراحةً؟ لـمَ لا يقول لها ما يجول في ذهنه؟ وفي مشاعره، وتوقّعاته؟

أخذ في المقابل يعمل بصمت في معظم الأيّام، ولا يتكلّم إلاّ عن العمل الذي ينجزانه، ليقول أحياناً إنه لم يكن يدرك مدى صعوبة هذه المهمّة.

ـ أنتَ تنسى دائماً أنّ حياة والدكَ بأكملها في هذا المنزل هنا.

كان أوليڤر يطّلع على الملفّ تلو الآخر في مكتبة والده، بينما انشغلت هي في توضيب المئات من الكتب التي أراد أوليڤر الاحتفاظ بها.

ـ هل تقولين لي إنّ حياته بأكملها يتمّ الآن توضيبها في صناديق كرتونية؟ وإنّ هذه هي النهاية التي سنؤول إليها جميعاً؟

ـ أظنّ ذلك صحيحاً نوعاً ما. إنّه لأمر محزن، أليس كذلك؟

ـ وقد حصلتُ على ما يكفي لهذا اليوم.

رفع ذراعيه فوق رأسه ومدّهما، فشعرت آنا بحاجة ماسة للذهاب إليه والالتصاق بجسده. إنّ البقاء برفقته بهذا الشكل المتواصل أخذ ينهك قواها ويحملها على السؤال عمّا إذا اتخذت القرار الصحيح.

وإن كان ذلك ينهك قواها هي، فما تُراه يفعل في أوليڤر؟ كانت قد سمعته يذرع غرفته ذهاباً وإياباً أثناء الليل، وسمعته مرّة يقترب من باب غرفتها ويقف عنده لفترة طويلة قبل أن يعود أدراجه بهدوء. سيطر عليها التوتر حينها وحبست أنفاسها وأطرقت سمعها.

لو أنّه دخل إليها، لأمرته بالخروج من غرفتها مجدّداً... لكنّ مجرّد التفكير في احتمال دخوله غرفتها كان كافياً لترتعش أوصالها.

لكنّهما لم يتراجعا عن وعدهما ولم يضعفا. بل ظلّ ملتزماً حدود التهذيب واللياقة مولياً إيّاها عناية بالغة طيلة الوقت، حتى كادت أحياناً تصيح غضباً من استقامته وحسن سلوكه.

ثم، في أحد الأيام، انهار القناع الخادع وسقط. كانت جاثيةً على ركبتيها أعلى السلالم توضّب بانتباه الأغطية والوسادات في مجموعات، حين قدم إليها عاصفاً وعيناه تقدحان شرارات ملتهبة.

ـ كان عليّ أن أعرف أنّه لا يمكن الوثوق بك.

نظرت آنا إلى أوليڤر بلهوٍ صريح، وقالت مستنكرة: «عمّ تتكلم؟ ماذا فعلتُ الآن في تقديرك؟».

وعلمت من النظرة التي علتْ وجهه أنّه لا بدّ قد اندفع بحاجة ماسّة وملحّة جداً.

ـ أنا أتكلم عن إرث العائلة.

لم يشح أوليڤر بعينيه عن آنا للحظة واحدة. وأضاف: «الألماس والزمرّد والياقوت التي كانت ملكاً لجدّتي، وساعة والد جدّي الذهبية».

ـ وما علاقتي أنا بكلّ تلك الأشياء؟

سألته بسخطٍ والنقمة تسيطر على نبرتها وقد شعرت برعشة اشمئزاز تنسلّ ببطء من أعلى ظهرها.

صاح بها والاحمرار يعلو وجهه الغاضب: «وهل تجرؤين على السؤال؟ في حين أنّك الشخص الوحيد الذي تُرك لوحده في هذا المنزل منذ وفاة والدي؟».

أجابت آنا محافظة على هدوئها وبرودة أعصابها: «أنت تقترح أنّي أخذتها؟».

ـ من عساه يكون سواكِ؟

ـ ربّما تودّ تفتيش غرفتي؟

صعب عليها تصديق ما تسمعه. أوليڤر يتّهمها بالسرقة، منذ برهة أراد اصطحابها إلى سريره؛ وها هو الآن يبدو راغباً في خنقها بيديه.

قد يكون ذلك سبباً إضافياً وراء انتهاء زواجهما وفشله. فهذا الجانب من شخصيّته لم تره من قبل، أو على الأقل، ليس إلى هذا الحدّ. كان غاضباً بشأن المال، لكنّه هذه المرّة أخذ يستشيط غيظاً وهو يتراقص على قدميه وعيناه تقدحان الشرر.

ـ كأنّ ذلك سيؤدي إلى شيء ما. كلانا يعلم ما حدث للأغراض تلك، أليس كذلك؟ لم تكن قصّتك الملفّقة عن ذهابك لرؤية أخيك مرّة أخرى سوى حجّة وتغطية لفعلتكِ. حسناً، دعيني أقول لكِ، يا سيدتي، إنّك تماديتِ جداً هذه المرة. كنتِ تملكين عذراً منطقياً في ما يتعلق بالمال، لكن ليس الآن.

حاولت آنا جاهدة الحفاظ على كبريائها وهدوئها لأنّها علمت أنّ الصراخ في وجهه لن يؤدي بها إلى أيّ مكان. لكنّ الأمر كان شاقاً وهي

تواجه بهذا الاتهام الظالم الشرس والفظّ المهين.

ـ أوليڤر...

ـ لا تفعلي!

ـ أفعل ماذا؟

قطّبت آنا جبينها متمنيّةً ألاّ تفقد السيطرة على أعصابها. فهي ليست بحاجة الآن إلى ما قد يُضعفها.

ـ لا تحاولي التملّص ممّا فعلتِ.

ـ أنتَ تتسرّع في حكمك واستنتاجاتك.

ـ أتمنّى لو كان ذلك صحيحاً.

ـ لم أقترب قطّ من مجوهرات والدك الثمينة. لم أكن أعرف حتى بوجودها.

ـ ويُفترض بي أن أصدّق ما تدّعين. أليس كذلك؟

ـ إنّها الحقيقة.

ـ أين هي إذن بحقّ الجحيم؟

ـ لا أعلم. إن كنتَ ترفض أن تصدّقني، هذا من حقّك. لكنّي لم أرها، ولم آخذها، ولم أعطها لتوني.

بدا لبرهة وكأنّه يريد أن يصدّقها، لكنّ ملامحه عادت لتقسو من جديد وازداد غضبه: «أعطني عنوان توني... من فضلك».

تردّد قليلاً قبل أن يقول «من فضلك»، لكن كان بإمكانه أن يجثو أمامها على ركبتيه ويرجوها من دون أن يصل إلى أيّ نتيجة، لأنّ آنا لم تكن تعرف مكان توني أو عنوانه. فلم يجر أيّ اتصال بينهما منذ أن فسخ خطوبتهما.

ـ لا أعرف عنوانه.

ـ كاذبة!

ازداد غضب آنا بشكل لا يُطاق، فلم تستطع معه صبراً: «لم أكذب عليكَ يوماً، أوليڤر. وأنا لا أكذب الآن، لا أعرف أين هي مجوهراتك

اللعينة. لعلّ والدك تخلّص منها. هل رأيتها منذ تُوفّي؟ أين كان يحتفظ بها؟».

ـ في الخزنة الحديدية... ونعم، لقد رأيتها.

أشارت آنا إلى نفسها بيديها الاثنتين وأجابته: «وأنّى لي أنا أن آخذها إذن؟».

ـ لأنّ مفاتيح الخزنة كانت معلّقة مع مفاتيح المنزل الأخرى. وقد كُتب عليها «القبو»، والسبب كما يبدو هو خداع أيّ سارق محتمل. لكنّك كنتِ تملكين الوقت الكافي لتجرّبي كل المفاتيح قبل أن ترحلي في سيّارة الجيب.

ـ هل أنت متأكد من أنّ الخزنة لا تحتوي على أرقام سريّة لفتحها، أرقام يُفترض أنّي عرفتها بأعجوبة؟ هذا سخيف، أوليڤر. لن أستمع إلى المزيد من اتّهاماتك المهينة.

فقدت آنا تفكيرها السويّ إلى حدٍّ كانت قادرة معه على صفعه. هل تدهورت علاقتهما إلى هذا الدرك المشين بحيث استطاع أوليڤر أن يظنّها قادرة على ارتكاب السرقة؟

مرّت بجانبه بسرعة خاطفة مبعدة ذراعه عنها بعنف وهو يحاول الإمساك بها، وهرولت مسرعة إلى الطابق السفليّ وعصفت خارجة من المنزل الكبير.

ما إن وصلت إلى المنزل الآخر حتى طلبت سيّارة أجرة على الهاتف، ثم ركضت مسرعة إلى غرفتها واختطفت حقيبتها من أعلى الخزانة ورمت بثيابها في داخلها، وحين انتهت، وأخذت كلّ حاجياتها، وصلت سيّارة الأجرة.

كانت آنا لا تزال تستشيط غيظاً وهي تمرّ خلف المنزل الذي عرفت فيه يوماً طعم السعادة. وما أحزنها حقاً هو أنّ أوليڤر لم يحاول أن يلحق بها.

انتظرت طويلاً في المطار، فقدومها إلى هنا من دون شراء تذكرة الطائرة ومن دون أن تعرف موعد إقلاع الطائرة التالية إلى «دبلن» لم يكن

تصرُّفاً حكيماً. لكنّ ذلك سمح لها بمزيد من الوقت للتفكير.

وبعد أن جالت بأفكارها واستعادت كلّ الأحداث الأخيرة، علمت أنّها تقوم الآن بالعمل الصائب. فمحاولتها إعادة بناء الجسور التي هُدمت وإعادة وصل ما انقطع بينهما لم يُجد نفعاً قط. لقد جرحها أوليڤر وأساء الظنّ بها مرّتين متتاليتين؛ ولن تقدّم له بعد الآن الفرصة لتكرار ذلك ثانية.

شعرت بمرارة وأسىً بالغين بعد أن جُرحت في العمق. كيف يظنُّها قادرة على سرقة إرث العائلة؟ قدّم لها ذلك برهاناً قاطعاً على أنّه لم يحبّها قط في الواقع. بل كان الجسد ورغباته هما الرابط الوحيد الذي جمعهما يوماً، كما ظنّت منذ البدء.

لو أنّه أحبّها، لوثق بها تلقائياً، ولما اعتبرها للحظة واحدة مسؤولة عن اختفاء مجوهراته. لقد تخلّصت منه إلى الأبد.

عندما وصلت آنا إلى الكوخ، كان الظلام يخيّم على المكان. كانت تشعر بالبرد والتعب والضياع التامّ. أشعلت النار في غرفة الجلوس وملأت إبريق الماء ووضعته على النار ليغلي، ثم صعدت إلى الطابق العلويّ وأدارت المدفأة الكهربائية.

رمت حقيبتها بلا مبالاة على السرير الآخر محدِّثة نفسها بأنّها سترتّب أغراضها في الصباح الباكر. أخرجت ثياب النوم وعباءة دافئة ونزلت لتبدّل ثيابها أمام النار في الطابق السفلي، ثم أعدّت لنفسها فنجاناً من الشوكولاتة الساخنة وأكلت بعضاً من قطع البسكويت بعدما شعرت بجوع مفاجىء، وذهبت لتندسّ في فراشها.

استغرقت في نوم عميق لعشر ساعات متواصلة، وعندما فتحت عينيها، لم تذكر أين هي. لكنّها لم تستغرق وقتاً طويلاً لتستعيد ذاكرتها صور الأحداث المؤسفة.

هل كان أوليڤر سعيداً بالتخلُّص منها؟ أخذت آنا تتساءل بحزن وأسى عميقين. أم لعلّه سيأتي سعياً وراءها ليعرف ماذا فعلت بالمجوهرات؟ لن يلقى سوى خيبة الأمل إن هو فعل ذلك، لأنها كانت تجهل تماماً ماذا حلّ

بها.

أما ما بانت تعرفه حقّ المعرفة فهو أنّ زواجها بأوليڤر قد انتهى هذه المرّة وولّى إلى غير رجعة، وأصبح جزءاً منسيّاً من حياتها وفصلاً من فصولها المطويّة. وهي اليوم ستباشر في بداية جديدة.

قفزت من السرير واستحمّت وارتدت ثيابها، ثم نزلت لتعدّ فطورها وقهوتها. وأمضت الساعة التالية تفكّر وتخطّط لمستقبلها.

في الوقت الحاضر، ستبقى هنا وستسعى للحصول على وظيفة مؤقتة. وما أن تستعيد نشاطها وحيويّتها، حتى تعود إلى لندن لتواصل حياتها القديمة.

لقد ارتكبت خطأ جسيماً بزوجها بأوليڤر، إنّه بلا ريب أكبر خطأ في حياتها. فالحبّ من النظرة الأولى، والزواج المبنيّ على الحدس فقط، نادراً ما ينجحان.

أمضت آنا اليوم في توضيب حاجيّاتها والخروج لشراء الطعام، وكلّ ما يلزم لراحتها وشعورها بالاستقرار. وفي اليوم التالي ستذهب بحثاً عن عمل.

لم يصدّق أوليڤر أنه اتّهم آنا بالسرقة. فآنا التي تزوّجها يستحيل أن تُقدِم على فعل أمر كهذا، ليس بعد مليون سنة. كان المال الذي أخذته أمراً مختلفاً بمجمله، فقد اعتبرته يخصُّها وملكاً لها. وما كان عليه أن يحكم عليها الآن بالاستناد على ما فعلته سابقاً.

لكن، ماذا عساه يصدّق؟ أين اختفت المجوهرات؟ من أخذها؟ فبالنظر إلى المسألة منطقياً، كانت آنا الوحيدة التي تملك مفاتيح المنزل الكبير، والفرصة للقيام بذلك.

كان أوليڤر قد رأى المجوهرات في الخزنة في الأيّام التي تلت الجنازة، وها هي الآن قد اختفت. كما أنّ آنا قامت بزيارة أخيها الغامض مرّة أخرى! كل شيء يشير إليها، لكنّ أوليڤر كان يعلم في قرارة نفسه أنّها ليست مذنبة. ما كان يجب قط أن يتّهمها، يا له من أحمق غبيّ طائش.

في الواقع، كانت آنا تكاد تفقده صوابه في الأسابيع الأخيرة. في كلّ مرة كانت تنظر إليه، كان يشعر بالنار تلتهم جسده كله وتتركه حطاماً.

كانت تبقيه مستيقظاً طوال الليل وتجعله يعاني طيلة النهار، بحيث بات موشكاً على الانفجار لعدم قدرته على احتواء مشاعره أكثر من ذلك. كان هذا هو السبب وراء غضبه وثورته واتّهامه لها بتسرُّع.

والآن، ها قد فات الأوان!

أراد أوليڤر أن يوقف آنا في ذلك اليوم المشؤوم؛ أراد أن يلحق بها، وأن يعترف لها بخطئه، ويقول لها إنّ اتّهامه نابع من ثورته وانفعاله ومبنيّ على مغالطات ليس أكثر، وإنّه يدرك تماماً أنه مخطىء.

إلاّ أنّه أراد أن يمنحها بعض الوقت لتستعيد هدوءها. لذا، تريّث ساعة أو أكثر قبل أن يلحق بها إلى المنزل.. ليواجه صدمة حياته عندما اكتشف أنّها اختفت وأخذت كلّ أغراضها وحاجياتها.

ظنّ أنها كانت تعني أنها لن تبقى في المنزل الكبير، وليس أنّها سترحل عنه كلياً. اللّعنة! ماذا عساه يفعل الآن؟ هل تبقّى أمامهما أيّ فرصة أخرى، أم تراه قام لتوّه بهدم كل الآمال والتوقعات المستقبليّة؟

كان اتهام آنا بالسرقة تصرّفاً مجنوناً. لقد قتل غضبه الأعمى حبّها له واغتاله في مهده، قضى عليه إلى غير رجعة... جلس وحيداً لما تبقى من اليوم يحاول إقناع نفسه بأنّه سيكون أحسن حالاً من دون آنا.

مع بزوغ الفجر راودته أفكار معاكسة، فأخذ رأسه بالدوران في فلك حقيقة واحدة ألا وهي ضرورة إيجاد آنا. إنّه يحبّها إلى حدّ يرفض معه التخلّي عنها بسهولة. أدرك أن عليه استرجاعها ولو اقتضى منه الأمر الدخول في معارك طاحنة.

كان متأكّداً من أنّها ذهبت إلى الكوخ لأخذ سيّارتها المتوقفة أمامه، وإن حالفه الحظ، ستبقى هناك بضعة أيّام كافية ليتمكّن من اللّحاق بها.

همّ بالتقاط سماعة الهاتف لكي يُسرع في حجز مقعد له على أوّل طائرة، وإذا بميلاني تتّصل به، لكنّه قاطعها بسرعة لأنّه لم يُردها في الجوار

بعد الآن. فقد أدّى واجبه نحوها على أتمّ وجه، وعاملها بلطفٍ أثناء حزنها على رحيل إدوارد. إلاّ أن ذلك يعدُّ كافياً جداً.

وحين رنّ جرس الهاتف مباشرة بعد إقفاله الخطّ مع ميلاني، التقط السماعة بحدّة وقال غاضباً: «ميلاني، أعتقد أنّي قلتُ لكِ...».

ـ لا أعلم من تكون ميلاني هذه، لكنها حتماً ليست أنا.

باغتت المفاجأة أوليڤر للحظات وهو يسمع صوت الرجل المتهكّم، فقال: «أنا آسف، من المتكلّم؟».

ـ أدعى كريس بايج، شقيق آنا. هل هي هنا؟

إنّه شقيق آنا! الأخ الغامض الذي لم تسمح له بمقابلته قطّ.

أجابه بحدّة لم يتعمّدها، لكنّ هذه المخابرات زادت من توتّره في هذه اللحظة تحديداً: «لا، ليست هنا».

ـ متى ستعود إلى المنزل؟ فأنا أرغب حقاً في التحدّث إليها.

أغمض أوليڤر عينيه وأسند ظهره على الكرسيّ بإنهاك قائلاً: «لن تعود أبداً».

هل تفوّه حقاً بتلك الكلمات، أم أنّها تردّدت في ذهنه فقط؟

ـ ماذا تعني بأبداً؟

يا إلهي، لقد تفوّه بها بالفعل. عليه أن يقول الحقيقة الآن: «لقد هجرتني».

ساد الصمت للحظات وجيزة قبل أن يتكلم كريس ببطء شديد: «بسبب المال الذي أقرضتني إيّاه؟ هل كنت تضايقها لهذا السبب حتى الآن؟».

إذن، فقد أعطت آنا المال لأخيها في النهاية، ولا بدّ أنّها أخبرت كريس بردّة فعله. أيّ نوع من الرجال الخبثاء جعلته يبدو أمام شقيقها؟ وبينما كان أوليڤر يفكّر في إجابة معقولة على سؤال كريس، تكلّم هذا الأخير مجدّداً: «هل قالت لك يوماً عن السبب الحقيقيّ الذي حملها على إعطائي ذلك المبلغ؟».

أقرّ أوليڤر بهدوء وهو يفرك جبينه المتعب براحة يده: «لا».

ـ السبب هو أنّي جعلتها تعدني بألاّ تخبرك بالحقيقة. وقد حرَّرتُها من وعدها هذا مؤخَّراً لكنّها كانت غلطتي أنا منذ البدء في عدم إطلاعك على الأمر برمّته.

تعده؟ عمّ تراه يتكلّم هذا الرجل؟

ـ كنت بحاجة إلى المال؛ كانت أعمالي تمرّ بوقت عصيب جداً. علمتُ أنّ الأمر سيكون مؤقتاً ومرحلياً فقط، لكن...

قاطعه أوليڤر بنفاذ صبر: «وجعلتَ آنا تعدك بألاّ تخبرني؟ بحقّ السماء، كنتُ لأقرضكَ المال بنفسي لو علمتُ بالأمر، لو أخبرتني آنا...».

لكن، عندما أكمل كريس كلامه وشرحه للموقف، اضطر أوليڤر للاعتراف بأنّ شركة «لانغفورد» ما كانت لتعطيه تلك الصفقة لو أنّها علمت بمشاكله الماليّة.

ـ إذن، ما الذي ستفعله بشأن أختي؟

ـ سألحق بها. رغم أن قبولها بي أو رفضها لي هي قصة أخرى سيكون عليّ التعاطي معها بحكمة هذه المرّة. فقد قلتُ لها أشياء فظيعة للغاية.

ـ أعتقد أنّ أمامك العديد من الجبال الوعرة لتقطعها وصولاً إليها. فشقيقتي تتمتّع بدرجة من الكبرياء لا يمكنك تصوّرها، لكنّ الأمر يستحقّ العناء، فأنا أظنُّ أنها لا تزال مغرمة بك. أتمنى لك حظاً سعيداً.

بعد أن أعاد أوليڤر سماعة الهاتف إلى مكانها، أدرك أنّه سيحتاج إلى كلّ الحظ الذي يمكن الحصول عليه. لم يكن كريس يعلم القصّة بأكملها، وإلاّ لما اقترح عليه اللحاق بها ومحاولة مصالحتها. ولكان قال لأوليڤر إنّ عليه الابتعاد عن أخته تماماً، هو واتّهاماته السخيفة غير المبنيّة على أيّ أسس واضحة ومتينة.

***

٧ ـ لن أغفر لك

ظلّت آنا تتوقّع زيارة أوليڤر منذ أن اتّصل كريس به؛ حتى أنّها راحت تقف عند النافذة معظم ساعات النهار تراقب وتنتظر. فكّرت في البدء بالهروب إلى مكانٍ ما، إلى لندن ربّما، أو أيّ مكان لا يمكنه فيه إيجادها.

لكنّها قرّرت لاحقاً أنّ المواجهة أمر لا بدّ منه لاتخاذ القرارات النهائية. لا شكَّ في أنَّ الطلاق هو خيارها الوحيد. فمن غير المنطقي أن تبقى متزوّجة برجل لا يثق بها، ولن يثق بها قط.

حاول كريس إقناعها بمنحه فرصة أخرى، لكنّ آنا كانت تعلم أنّها لن تجرؤ على ذلك ولن تستطيع التحمّل ولن تقبل بالمزيد من الإهانات. فقالت له بحدّة: «لن أمنحه فرصة أخرى لإيذائي مجدّداً».

سقطت توقّعاتها مع قدوم المساء حين أسدل الظلام وشاحه الأسود على المكان... لن يأتي. ليس اليوم على أيّ حال. الحمد لله على ذلك. لقد ذهب التوتّر الذي عانت منه طيلة النهار سُدىً.

كانت في المطبخ تُعدُّ لنفسها عشاءً خفيفاً عندما دقّ أوليڤر الباب، أخافها هذا الصوت المفاجيء، لكنّها علمت على الفور أنّه هو.

شعرت بأثقال تثبت قدميها على الأرض وتمنعها من السير، وهي تشق طريقها نحو الباب الأماميّ. بدا الوقت الذي تطلّبه وصولها إلى هناك أزلياً. فتحت الباب ولم تتنحّ جانباً لتسمح لأوليڤر بالدخول، بل وقفت هناك لتسمع ما سيقول بعد أن أضاءت النور الخارجيّ لكي تراه بوضوح.

بدا مخيفاً وفي حالة يُرثى لها. كانت عيناه الذهبيّتان غارقتين في

جيبيُن محاطين بهالات سوداء، وقد هزلت وجنتاه؛ فأسعدها أن تراه يعاني هو أيضاً. لـمَ عليها هي وحدها أن تعيش في جحيم لا يُطاق؟

أومأ لها برأسه وقال بنبرة متسائلة: «آنا؟».

لن يقوم إذن بالخطوة الأولى، بل ترك لها ذلك. فقالت بنبرة تعمّدت جعلها باردة وموضوعية جداً: «من المؤسف أنّك لم تتّصل قبل مجيئك، لوفّرت عليك عناء الرحلة».

أجاب بعد أن تسمّرت عيناه على وجهها الشاحب: «أفهم أنّكِ لا ترحبين بي، لكنك بلا شكّ لن تجعليني أعود أدراجي الآن على الفور؟».

ـ هل هناك أيّ سببٍ يمنعني من ذلك؟ ألم أقل لكَ بوضوح إنّ كل شيء انتهى بيننا؟

ـ يجب أن نتكلم.

ـ لماذا؟ لأنّك اكتشفتَ أمر الوعد الذي قطعته لكريس؟ وعلمتَ أنّ لديّ أخاً حقاً؟ هذا يحدث فرقاً كبيراً، أليس كذلك؟

كانت توشك على الانفجار. إن كان يظنّ أنّه بمجرّد قدومه إلى هنا وتقديم اعتذاراته التافهة، سيسوّي الأمور بينهما مجدّداً، فهو بلا ريب مخطىء جداً.

ـ هذا لا يحدث أيّ فرق حتماً. كنتُ مخطئاً في ما فعلت وأنا أعترف بذلك. والآن هل يمكنني الدخول من فضلك.

عرفت آنا أنّها لن تستطيع إبقاءه واقفاً بالباب طيلة الوقت الذي يتطلّبه حديثهما، فتنحّت جانباً على مضضٍ وسمحت له مكرهة بالدخول، وقد بدا ذلك جلياً على ملامحها: «أنتَ تهدر وقتكَ الثمين. لن تقول شيئاً بإمكانه تغيير ما أشعر به».

ما من رجل على وجه البسيطة مغرم حقاً بزوجته ويقوم باتّهامها بسرقة مجوهرات العائلة، بل يناقش الأمر في البدء قبل أن يرميها باتهاماتٍ مجحفة. لكن، ليس أوليڤر من يفعل هذا. آه، لا، فهو ينفعل أوّلاً ثم يفكر لاحقاً. والآن، بعد أن أدرك خطأه الجسيم، يبدو أنّه يحاول إصلاح

الأمور مجدّداً بمجرّد كلمة اعتذار.

أغلقت آنا الباب خلف أوليڤر ولحقت به إلى غرفة الجلوس. كانت غرفة صغيرة، لا تشبه في شيء غرفة الجلوس البالغة الأناقة في منزل أوليڤر.

ملأت رجولته المكان وعبقت في الأجواء رائحة عطره الأخّاذ، بحيث أن وجوده بذاته بات يمثّل تهديداً لمناعتها. فقالت بنبرة قاسية وهي تحاول عبثاً ألاّ تنظر إليه: «والآن، قُل ما جئت لأجله، ومن ثم ارحل من هنا».

من الصعب تجاهل أوليڤر لانغفورد! كان يرتدي سترته الجلدية السوداء التي كان يرتديها عندما التقيا للمرّة الأولى، وقميصاً أسود وبنطالاً من الكتّان الأسود كذلك. فبدا مثيراً إلى حدّ لا يمكن احتماله.

بقي واقفاً على ما يبدو بانتظار أن تجلس هي قبل أن يختار كرسيّاً لنفسه. كانت آنا عازمةً بعناد على البقاء واقفةً لعدم تشجيعه على تمضية الكثير من الوقت هنا، لكنّها شعرت بقدميها واهنتين وعاجزتيْن عن حملها لوقت طويل. صلّت لكي لا يُطيل البقاء، وهي تجلس ببطء على أقرب كرسيّ منها.

جلس أوليڤر بدوره، وهو يقول: «لقد اقترفتُ خطأً فادحاً».

ـ لن أجادلكَ في هذا. ألهذا السبب أنتَ هنا الآن؟ لكي تعتذر؟

ـ شيء من هذا القبيل. هل أنتِ بخير يا آنا؟ تبدين شاحبة جداً. هل تأكلين كما يجب؟

آه، يا إلهي، تمنّت ألا يكون عازماً على الاستفسار عن صحّتها. فهناك أمور تفضّل ألاّ يعرفها: «بالطبع أنا آكل جيداً. في الواقع، كنتُ أهمُّ بتحضير عشاء خفيف لي».

ـ لكن إذاً عشاء لاثنين. فأنا أتضوّر جوعاً.

تذمّرت آنا. هل عليه أن يزيد من عذاباتها وآلامها؟

ـ إنها فقط شطيرة من سمك التونا.

ـ أنا أحبّ سمك التونا.

ـ . . . وبعض السلطة.

نهض عن كرسيّه قائلاً: «هذا جيّد. سآتي لأساعدك، هل تسمحين؟».

المساعدة أم الإعاقة؟ لم تكن بحاجة إلى كلا الأمرين: «المطبخ لا يتسع لشخصين، كما تعلم جيداً. بإمكاني تدبّر الأمر وحدي. إبقَ أنتَ هنا، وسأحضر الطعام على صينية».

ـ أذكر جيداً أنّنا كنا نشكّل فريقاً ممتازاً في المطبخ في ما مضى. كان ذلك تدبيراً حميماً جداً.

وسطعت عيناه فجأة ببريق ذهبيّ مثير.

لكنّ ذلك كان في الماضي، وهما الآن في الحاضر، ولم تُرد آنا ما يذكّرها بما مضى.

خاطبته بلهجة آمرة وهادئة: «التدابير الحميمة لم تعد متوفّرة لك الآن. من الأفضل أن تتذكّر هذا جيداً. أنا أفضّل أن تبقى هنا».

هزّ كتفيه استسلاماً: «أنتِ الآمرة هنا. كما تشائين».

ثم جلس ثانية. عندما بلغت آنا المطبخ، وقفت مسندةً ظهرها إلى الحائط وأخذت نفسين عميقين. فبرغم أنّها كانت تتوقّع زيارة أوليفر، ورغم أنّها حضّرت مسبقاً ما ستقوله له، إلاّ أنّها لم تهيىء نفسها لهذه الحرارة المتصاعدة من عينيه التي ألهبت جسدها كلّه.

ظنّت أن مشاعرها قد دُمّرت، ليحلّ مكانها شعورٌ من نوع آخر، أيّ الكراهية. كيف تفسّر إذن ما جرى لها بمجرّد النظر في عينيه؟

أم تُراها تُخطىء ثانية في فهم أحاسيسها وفي قراءة الإشارات المنبعثة منها؟ هل أنّ النفور منه هو الذي ينبض في عروقها وليس التوق إليه؟ كيف لها أن تتأكّد؟ لكنّها علمت رغم ذلك، أنّها، إن لم تُسرع في إعداد الشطيرتين، فسيأتي بحثاً عنها.

دفعتها هذه الفكرة إلى العمل بنشاط فأنهت إعداد الطعام في عشر دقائق. كان أوليفر قد وضع طاولة القهوة بين الكرسيّين، حيث وضعت آنا

الصينية، وهي تهنّىء نفسها على هذا القدر من الهدوء ورباطة الجأش اللذين تظهرهما.

لم يكثرا الكلام أثناء العشاء، رغم أنّ آنا علمت أنّ أوليفر لن يلبث أن يبدأ الحديث الذي أتى إلى هنا من أجله. هل في نيّته الاعتذار؟ أم تُراه جاء يرجوها الغفران؟ هل أتى ليقول لها إنّه أخطأ في الحكم عليها بشكل فظيع؟ أو لينهي معها الاتّفاق على ترتيبات الطلاق؟

ـ ما الذي تفكّرين فيه؟

نظرت آنا إليه. لقد توقّف عن تناول الطعام وجعل يحدّق فيها بتينك العينين الذهبيّتين المهلكتين. وأضاف: «كنتِ غارقة في بحر من الأفكار. الأفكار المضطربة كما يبدو، هل تتعلّق أيّ منها بي».

رأت آنا أنه من الغباء إنكار الحقيقة، فقالت: «بالطبع».

ـ لدينا الكثير لنناقشه.

ـ نعم.

ـ ارتكبت خطأ فظيعاً حين اتهمتك بسرقة ذلك الإرث العائلي.

ـ يسرّني أنّك أدركت ذلك.

ـ كان عليّ أن أعرف أنه يستحيل أن تقدمي على عمل كهذا.

ـ نعم، كان عليك معرفة ذلك.

ـ كان عليّ أيضاً أن أعرف أنّ لديكِ عذراً كافياً لتصرّفك بمبلغ الثلاثين ألف باوند. ما كان عليّ أن أضعكِ في الخانة نفسها مع روزماري وميلاني.

ـ أتراكَ تشعر بحال أفضل الآن بعد أن اعترفتَ بكلّ ذلك؟

أطبقت يدا أوليفر على ذراعي الكرسيّ إلى أن ازرقت مفاصله، فهو لم يتوقّع هذا القدر من الخصومة والعداء. لكنّ صوته ظلّ هادئاً وهو يضيف: «أنا أطلب منكِ الغفران والسماح».

هزّت آنا رأسها بقوّة وثبات: «لا، هذا ليس صحيحاً. ما تحاول فعله هو تقديم تعويض أو ترضية عمّا فعلته. لكنّ ذلك لن يجدي نفعاً. فقد

آذيتني إلى حدّ يتخطى كل الحدود. بإمكانك أن تجثو على ركبتيك راجياً، لكنّ ذلك لن يحدث أيّ فرق».

ـ آنا...

ـ لا تُضف شيئاً. لقد انتهى ما بيننا؛ مات ودُفن. أنا في الواقع أشكُّ في أن نكون قد أحببنا بعضنا حقاً. فلو فعلنا، لما واجهنا كلّ تلك المشاكل، لوثقت بي، أو سمحت لي بإيضاح الأمور لك على الأقلّ. لم يجمعنا سوى الجاذب الجسدي، هذا كل ما في الأمر. كان والدك محقاً في الاعتراض على زواجنا ورفضه. كان الشخص الوحيد الذي يتمتّع بشيء من المنطق والحكمة.

فرك أوليڤر جبينه بأصابعه: «لقد تغيّرتِ يا آنا. لم تكوني قطّ بهذه القسوة من قبل. كنتِ دائماً...».

قاطعته وهي تحدّق فيه بعينيها الخضراوين الواسعتين: «هل هو أمر عجيب أن أتغيّر؟ بعد الطريقة التي عاملتني بها؟ أريدك خارج حياتي، أوليڤر. إن أتيتَ إلى هنا لكي تتذلّل وترجوني أن أعود إليكَ، فيستحسنُ بك أن تنسى الأمر، لأنّي لن أفعل. بل أفضّل في الواقع أن ترحل الآن».

رجت الله أن يساعدها على القيام بما هو صواب.

ـ في هذه الساعة من الليل؟

ـ نعم، في هذه الساعة من الليل. فقد أخطأت في مجيئك في ساعة متأخّرة.

ـ لم أستطع حجز مقعد على طائرة أخرى.

ـ كان عليك إذن الانتظار حتى يوم غد.

ـ كنتُ آمل في أن تسمحي لي بالبقاء؟

تذمّرت آنا، فهذا آخر شيء قد ترغب في حدوثه: «لا أظنّ ذلك».

ـ حتى وإن وعدتكِ بعدم التسبُّب لكِ بأيّ إزعاج، وبأن أكون صبياً عاقلاً ومطيعاً؟

رسم على وجهه علامات البؤس والشقاء. فقالت: «بشرط أن ترحل

مع خيوط الفجر الأولى. لا أريدكَ هنا، يا أوليڤر. لقد انتهى كلّ شيء بيننا، وكلّما أسرعت في تقبّل الأمر، كلّما كان أفضل لكلينا».

اعتصر قلبه جرّاء كلماتها القاسية، لكنّه قال بهدوء: «لا بدّ من طريقة تمكّنني من جعلك تغيّرين رأيكِ».

ـ ليس هناك من طريقة البتّة. إن كنتَ تريد الخلود إلى الفراش الآن، فأنت تعلم أين تقع غرفة الضيوف، سأتولّى أنا تنظيف الأواني هنا.

قفز واقفاً: «لا، أرجوكِ. دعيني أساعدكِ».

ـ في هذه الحال، ستقوم أنت بالعمل كلّه، وسأذهب أنا لأنام. ليلة سعيدة، أوليڤر.

لم يبدُ مسروراً، لكنّها لم تأبه لذلك. بل صعدت إلى غرفتها واندسّت تحت الأغطية عندما سمعته يصعد السلالم. كانت قد أنهت غسل أسنانها ووجهها في وقت قياسيّ لتأوي إلى الفراش سريعاً وتتجنّب الالتقاء به مجدّداً. لكنّها عجزت عن الاسترخاء والنوم وألفتْ نفسها تنصت وتنتظر.

التفّت أصابع قدميها وتصلّب جسدها كلّه عندما بلغ باب غرفتها، وأصدر قلبها خفقة مدويّة، إلاّ أنّ أوليڤر مرّ من أمام الباب نحو الغرفة الأخرى من دون أن يتريّث قليلاً أو تتردّد خطواته.

دخل إلى الحمّام الذي يفصل بين الغرفتين، ثم دخل إلى غرفة النوم، وساد الصمت المطبق على المكان كلّه، لكنّها ظلّت عاجزة عن الاسترخاء، ومرّ وقت طويل جداً قبل أن يغلبها النعاس.

في الصباح التالي، استيقظت وهي تأمل أن يكون أوليڤر قد التزم بكلامها حرفياً ورحل عن الكوخ قبل أن تنزل إلى الطابق السفليّ. لكنّ الحظ لم يكن حليفها، حتى أنّه حضّر طعام الفطور. كانت رائحة اللحم المقليّ التي تصاعدت إلى أنفها وهي تدخل المطبخ كانت أقوى بكثير ممّا تحتمله معدتها المضطربة.

عادت مسرعة إلى الحمام، آملة ألاّ يكون أوليڤر قد سمعها. عندما عادت للانضمام إليه مجدّداً، كان طعام الفطور قد أُزيل كلياً، ولم تجد

على الطاولة سوى فنجاناً من القهوة. نظر إليها بقلق وقال: «أعلم أنّكِ تعانين من خطب ما، يا آنا. لـمَ لا تقولين لي ما هو؟».

أجابته بخفة: «لا بدّ أنّي التقطتُ جرثومة ما. أظنّ أنّي سأتناول القليل من الخبز المحمَّص».

شعرت بالحاجة إلى الحركة، إلى القيام بأيّ عمل يمنعها من النظر إلى أوليڤر. فتابع مستفهماً: «ويُفترضُ بي أن أصدّق هذا، أليس كذلك؟ هل زرتِ الطبيب؟ هل هو من قال لكِ إنها جرثومة؟».

ـ ليس بعد، لم أفعل. هيّا، لا داعي للقلق، أوليڤر. سأكون بخير.

إلاّ أنّها شعرت بعينيه تخترقان ظهرها وتلسعان بشرتها. وضعت الخبز في المحمصة ولم تشأ الانتظار، فوضعت إبريق الماء على النار ليغلي: «أرغب في فنجان من الشاي بدل القهوة، هل أعدّ لكَ فنجاناً؟».

ـ لا. شكراً لكِ.

رغبت في الالتفات والنظر إليه، لكنّها لم تجرؤ، وراح قلبها يخفق بعنف شديد. ثمّ حدّثت نفسها بأنّها سخيفة في ما تفكّر فيه، فأنّى له أن يتكهّن بحقيقة الأمر؟ عندما انتهت من تحضير فطورها، أخذه أوليڤر من يدها وحمله إلى غرفة الجلوس.

في ما مضى من الأيّام الأسطورية التي عرفاها عندما تقابلا للمرّة الأولى، اعتادا أن يجلسا لتناول طعامهما إلى الطاولة بالقرب من النافذة حيث يستطيعان مراقبة الطيور في الحديقة وتفتُّح براعم الربيع فيها، والتمتُّع بالطقس المنعش في هذا المكان الرائع. لذا، لم يكن أمراً غريباً أن يحمل أوليڤر فطورها إلى هناك.

لكن مشاعر غريبة راودت آنا، فخطر لها أنّ الشعور بالذنب هو الذي يدفعه للتصرّف على هذا النحو. جلست والتقطت قطعة من الخبز... أم لعلّها هي من يشعر بالذنب لأنّها تعمّدت إخفاء حالتها عنه؟

قضمت جزءاً صغيراً دون أن تلتفت إليه. جلس أوليڤر في الجهة المقابلة وقد وضع فنجان القهوة على الطاولة أمامه. وقال بهدوء: «أعتقد

أنّها أكثر من مجرّد جرثومة. ألا تظنين أنّ عليكِ إطلاعي على الأمر؟».

قطبت آنا جبينها، وعادت معدتها لتضطرب ثانية، لسبب مختلف تماماً هذه المرّة.

ـ لا أعلم عمّ تتكلّم.

ـ آه، بل أعتقد أنّك تعلمين جيداً. انظري إليّ، يا آنا. قولي لي بصدق ما خطبكِ.

لم تتمكّن من النظر إليه، لكنّها أصرّت على موقفها: «ما من خطب البتّة».

ـ حسناً. لقد ألقيتُ نظرةً على خزانتكِ في الحمّام هذا الصباح بحثاً عن فرشاة أسنانٍ إضافية.

دقّت نواقيس الخطر في رأسها... نواقيس مدويّة.

ـ واحرزي ماذا رأيت يا آنا؟

لزمت الصمت المطبق.

ـ جهاز لاختبار الحمل.

أرادت أن تنزلق تحت الطاولة، أرادت أن تختفي في حفرة في باطن الأرض، بإمكانها أن تواجهه قائلة: وإن يكن؟ بإمكانها القول إنّها استخدمته وكانت النتيجة سلبيّة. بإمكانها أن تقول أشياء كثيرة... لكنّه سيكتشف الحقيقة عاجلاً أم آجلاً.

لم يكن غبياً، وبإمكانه أن يلاحظ حالتها، فالغثيان الذي شعرت به في الصباح جاء مبكراً ولم تستطع إخفاءه. لو أنها لم تتوقّف عن تناول حبوب منع الحمل عندما افترقا للمرّة الأولى. كانت تلك الحبوب تسبّب لها عوارض مزعجة فأرادت أن تجرّب نوعاً آخر. في هذه الأثناء، قرّرت أن تمنح جسدها بعض الراحة.

ولغبائها، لم تتنبّه لذلك عندما حملها أوليڤر إلى غرفة نومه في ذلك اليوم. إنه خطأ مصيري جسيم، واحد من أخطاء عديدة ارتكبتها كلما كان الأمر يتعلّق بهذا الرجل.

حدّقت فيه بشجاعة وقالت: «وهل تعلم، يا أوليڤر؟ كانت النتيجة إيجابية. لكنّ ذلك لن يحدث فرقاً كبيراً بالنسبة إليك، لأنّ هذا الطفل هو لي أنا».

إنّه قرار اتّخذته عندما علمت بأمر حملها. لم تُرده أن يكون أباً لهذا الطفل، فقد سبق أن تخلّى عن هذا الحق بامتياز. أضافت: «لن أعود إليكَ قط، من الطبيعي أن أدعكَ...».

ـ ماذا تقصدين بحقّ الجحيم؟

علتْ نبرة صوته فجأة وتطايرت شرارات الغضب من عينيه، لكنّه أدرك أنّ هذه الطريقة لن توصله إلى ما يسعى إليه، فانخفض صوته مجدّداً: «هذا الطفل هو ابني أنا أيضاً بقدر ما هو ابنكِ أنتِ، آنا... أعتقدُ أنّه ابني أنا، أليس كذلك؟».

كان سؤاله الأخير يهدف إلى التأكيد على الأمر وليس التشكيك به، فأجابته: «بالطبع».

ـ لذا، أريد أن أكون جزءاً من الأمر برمّته. أريد أن أكون إلى جانبك لمساندتكِ ومساعدتكِ في هذه المرحلة الصعبة، يجب أن تزوري الطبيب. من الأفضل أن تأتي إلى المنزل معي ليراك طبيب العائلة، سأقوم بكلّ الإجراءات، وسأ...

تكلّمت آنا بنبرة واثقة حادّة: «أوليڤر، لن أعود إلى رجل يظنُّ أني سرقتُ مجوهرات عائلته».

سرّها أن يبدو احمرار الخجل على سحنته، لكنّه أجابها بحزم: «لن أترك لك الخيار، يا آنا. الحقيقة أنّي اتّهمتُك قبل أن أفكّر في الأمر. لكنّي أدركتُ على الفور أنك لا يمكن أن تقومي بأمر كهذا. فأنتِ صادقة جداً ونزيهة جداً ومستقيمة إلى أبعد الحدود».

لوى شفتيه وهو يضيف هذه الكلمات الأخيرة: «أنتِ أفضل مني بكثير. أعلم أنّي لن أتمكن من إصلاح الضرر الذي تسبّبتُ لكِ به، لكن من أجل طفلنا... أرجوكِ أن تعطيني فرصة واحدة أخيرة. أعدكِ بألاّ

أتّهمك بالسرقة، أو بالزواج بي من أجل المال».

ـ أنت محقٌّ في أنّك لن تفعل ذلك مجدّداً، لأنّك لن تنال الفرصة لتكراره.

لن يجديه نفعاً إطلاق الوعود الآن لأن من يرتكب الخطأ نفسه مرّتين متتاليتين، ما الذي يضمن ألاّ يقع فيه مرّة ثالثة؟ رفضت أن تقبل المخاطرة.

قطّب جبينه بقسوة: «أتعنين حقاً أنّك لن تعودي إلى المنزل، يا آنا؟».

كانت آنا قد فكّرت في الأمر مطوّلاً أثناء الليل وقرّرت أنها تقوم بالخطوة الصحيحة.

ـ كلاسأدعكَ تراه بالطبع، فأنا لن أكون من القسوة بحيث أحرمك من ذلك لكن...

ـ حباً بالله يا امرأة، ماذا عساني أفعل؟ أأجثو على ركبتيّ وأرجوكِ؟

ـ قد أرغب في رؤية ذلك، إلاّ أنّه لن يكون كافياً، لا شيء سيكفيني في الواقع. ليس لديك أيّ فكرة عن الآلام التي تسبّبت بها والجراح التي حفرتها عميقاً في روحي، جراح لن تندمل ما دمتُ حية. لن أسامحكَ قط وأنا على قيد الحياة. لذا، لا أرى سبباً يدفعنا إلى العيش معاً. سيضعنا ذلك في وضع مستحيل يصعب احتماله.

***

٨ ـ تقاوم . . . تقاوم!

عجز أوليڤر عن وصف ما تعجُّ به نفسه من مشاعر عندما رأى جهاز اختبار الحمل. كانت الصدمة في البدء شديدة، صدمة كبيرة وتامّة. أخذ يحدّق فيه لدقائق عديدة وقلبه يخفق بعنف بين أضلاعه، قبل أن يخطر له أنّه ربما أحد الأشياء التي خلّفتها شقيقة آنا وراءها.

لكنّه قد يكون مخطئاً. لعل آنا هي من استعمله!

أخذت تداعب ذهنه فكرة آنا وهي تحمل طفلاً في أحشائها، طفله هو، فأسبغت عليه دفئاً أبويّاً خاصّاً وسعادة لم يختبرها من قبل.

ما إن نزلت آنا السلالم إلى الطابق السفليّ، ونظر في وجهها وفي علامات الإنهاك والمرض البادية على خطوطه، حتى علم أنها حامل. بدا الشحوب جلياً على وجهها في الليلة السابقة، لكنه عزا ذلك إلى التعب حينها؛ لكنّ الأمر مختلف تماماً الآن.

كان قد لحق بها بهدوء إلى الحمّام وسمع غثيانها، فنزل حينها إلى المطبخ وتخلّص من أيّ شيء قد تسبّب لها رائحته الغثيان.

إن كان هناك من شيء قادر على إعادة إحياء زواجهما وعلى جمعهما سوياً، فهو هذا بالتأكيد. إلاّ أنّه لم يكن مستعداً لمواجهة رفضها العودة معه إلى المنزل.

قالت إنّ ذلك سيضعهما في وضع مستحيل يصعب احتماله، وهو يتفهّم طريقة تفكيرها. لكنّ عليه الآن العثور على طريقة ما أو أيّ شيء يقنعها بالعودة معه. وما إن يصل بها إلى المنزل حتى يباشر العمل على

التقرّب منها مجدّداً، وإقناعها بأنّه لن يخذلها مرة ثانية، وبأنّ ما فعله هو أكبر خطأ ارتكبه في حياته، وبأنّ حملها هو أجمل ما قد يحدث لهما قطّ.

قد تكون المهمة طويلة وشاقة، إلاّ أنّه مغرم بآنا من رأسه حتى أخمص قدميه، وهو مستعد لبذل أيّ جهد من أجل إنقاذ زواجهما.

ـ لا يمكنكِ البقاء هنا وحدكِ، يا آنا. ليس في حالتكِ هذه.

برقت عيناها بلونٍ أخّاذ خلاّب: «لن يستمرّ الشعور بالغثيان طويلاً، فلم لا يمكنني البقاء؟».

كانت تشع جمالاً وتنضح حيويّة، وبدت شهيّة جداً بحيث راح يتساءل عن مدى غبائه عندما عرّض زواجهما للخطر باتّهامها بارتكاب جرائم كان يعلم مسبقاً أنها غير قادرة على ارتكابها.

ـ أريدك في المنزل لأنّك زوجتي. أريد أن أرعاكِ وأهتمّ بكِ وأساعدكِ في كلّ شيء.

ـ أهو اهتمام متأخّر، يا أوليڤر؟ هل نسيتَ أنك أنت من زاد الأمور صعوبة لي؟

ـ تظنين أنّي لا أعلم ذلك؟ تظنين أني سأتمكن من تخطّي الأمر لما تبقّى من حياتي؟

أدرك أوليڤر أن الألم الذي يعتصر قلبه ظهر جلياً في صوته. أرادها أن تسمعه وأن تعرف أنه آسف ونادم حقاً على ما فعله: «آنا، أريد أن أعوّضك عما فات، يجب أن تمنحيني هذه الفرصة».

رأى الطريقة التي نظرت بها إليه، وبريق النقمة يسطع في عينيها ليتحوّل إلى تردُّد واضح عندما التقت عيناهما. لكنّها عادت وأخفت تردّدها سريعاً مخافة أن يلاحظه أوليڤر.

اجتاح مشاعره نبض الأمل، فهي ليست منيعةً أمامه كما تحاول أن تفهمه. لم يكن ما رآه سوى شرارة واهنة خافتة، إلا أنّها ملأى بالأمل. لم تمت رغبتها الحارقة، لم يقتلها بعد، وإن كان سيمضي حياته كلها في تغذيتها وإعادتها إلى الحياة مجدّداً، فإنّه لن يتردّد مثقال ذرّة.

حاول الضغط على نقاط ضعفها: «آنا، أعدكِ بألاّ أتسبّب لك بالأذى مجدّداً. إنّه طفلنا الذي تحملين بحقّ السماء، وقد خُلق بفعل الحب. هل سيسمح لكِ ضميرك في أن تنكري على الطفل والده وتحرميه منه؟».

أراد أن يتابع كلامه ويعدها بتوفير كلّ ما يلزم لراحتها هي وطفلها، إلاّ أنّه تدارك الأمر مخافة أن يجرّه ذلك إلى التطرق إلى موضوع المال مجدّداً، وهذا ما يريد تجنّبه بأيّ شكل كأنّه الطاعون.

- لا شأن لضميري في الأمر، يا أوليڤر. فأنت من جعلني أشعر على هذا النحو. لا يمكنك أن ترمي الاتّهامات بطريقة اعتباطية، ومن ثمّ تتوقع مني أن أرتمي بين ذراعيك في اللحظة التالية كما لو أنّ شيئاً لم يحدث.

- أعلم ذلك. لكن، ألا تظنين أنّي نلتُ عقابي؟ لست الوحيد الذي يحتاج إليكِ، هناك طفلنا أيضاً.

تحدّثا مرّات عديدة في الماضي عن إنشاء عائلة، رغم أنّهما لم يخطّطا للبدء بذلك بهذه السرعة. كما اتّفقا على أنّ الطفل يحتاج كلا الوالدين، وقالا إنّهما في حال وقوع المحظور وانهيار زواجهما، سيبقيان سويّاً لصالح أولادهما وخيرهم، أتراها نسيت ذلك؟

أخذت آنا نفساً عميقاً وأغمضت عينيها لثوانٍ عديدة طويلة. بدت وكأنّها تفكر في كلامه، فأضاء بريق الأمل في نفسه، لكنّها تكلّمت، ولم يكن ذلك ما أراد سماعه: «أنا آسفة يا أوليڤر، لن ينجح الأمر بيننا».

- بإمكاننا إنجاحه، لا أستطيع مواجهة الحياة أو تصوّرها من دونكِ. أنا لا أستخدم الطفل لأبتزّك ولأحقّق من خلاله غرضي... حسناً، ربما بعض الشيء... لكنّي بحاجة إليكِ أيضاً. فأنتِ تمثّلين العالم كلّه بالنسبة إليّ. لقد مرّ اليومان الأخيران بسوادٍ وظلمة لم أشهدهما من قبل في حياتي.

- أوليڤر، لقد سبق لي أن فكرت بالأمر ملياً مرات عديدة. لا أعرف كيف سأتمكن من العيش مع رجل لا يثق بي، بل يشكّك بي دائماً. لن ينجح ذلك. سأظلّ دائماً بانتظار المرّة المقبلة.

- لن يكون هناك أيّ مرّة مقبلة.

كان يعدها بصدق والثقة بادية في صوته. وقد آلمه جداً أن تفكر فيه بهذا الشكل. ألم تكن اعتذاراته كافية؟ ألم تصدقه؟ ما عساه يقول أكثر من ذلك؟

هزّت آنا رأسها: «من السهل عليكَ قول ذلك، يا أوليڤر. لقد اكتشفتُ جانباً من شخصيّتك، لم أعرف قط بوجوده، وهو جانب لا أحبه البتّة. هل أنت حقاً لا تعلم كيف أشعر؟ لم أسرق في حياتي كلّها فلساً واحداً. لقد جرحتني وأهنتني وجعلتني أشعر بنفسي حقيرة ووضيعة. ورغم ذلك، تتوقّع مني الآن أن أعود إليك وأشاركك المنزل والحياة، وأعرّض نفسي لمواقف مذلّة مشابهة، لأني أحمل طفلكَ وحسب. ليس الأمر صحيحاً، يا أوليڤر. لن أقوم بذلك».

انطفأت شرارة الأمل الواهنة. لم يسبق له أن رأى آنا بهذا القدر من التصميم والعناد، وهذا القدر من الجمال الأخّاذ الفاتن الذي يمنحها إيّاه غضبها.

أراد أن يحملها إلى غرفة النوم ويعبّر لها بشكل ملموس لا لبس فيه عن مدى حبّه ورغبته فيها، كما كان يفعل في أيّام زواجهما الأولى. هل سيساعده ذلك؟ أتراها توافق على ما يطلبه وهما ملتصقان أحدهما بالآخر بنهم وشغف؟

لكنّه كان يعرف أنّ الابتزاز العاطفي ليس الجواب الشافي أو الدواء الناجع. يجب أن تعود آنا إلى المنزل وهي مقتنعة بأنّ ما تفعله هو الأفضل، وهو لخيرها هي والطفل.

صبّ لنفسه فنجاناً آخر من القهوة وهو يفكّر في ما سيقوله تالياً؛ ولاحظ أنّ آنا لم تلمس بعد قطع الخبز المحمّص أو الشاي الذي أعدّته أيضاً.

- كيف لي أن أثبتَ لك أنّي لن أكرّر ما فعلته قط في حياتي، إن لم تمنحيني الفرصة؟

كان مستعداً للركوع على ركبتيه أمامها ليرجوها أن توافق، إن عرف أن ذلك سيساعده. لم يسبق له أن وُضع في مثل هذا الموقف من قبل، فهو قادر على إيجاد الحلول لمشاكله أيّاً تكن، لكنّ الأمر يختلف مع آنا الشديدة العناد...

ـ ربما كان يجدر بكَ أن تفكّر في ذلك قبل أن تتفوّه بادعاءاتك واتّهاماتك.

ـ كأنّي لم أفعل هذا آلاف المرّات، آنا..

مال إلى الأمام بسرعة والتقط يدها، ثم أضاف: «... لا أريدكِ أن تمرّي بهذه المرحلة وحدكِ. أريد أن أظلّ إلى جانبكِ وأن أشاركِ هذه اللحظات. أنت بحاجة إليّ. لا تقولي لي إنّك تتوقين إلى البقاء وحيدة خلال هذه الأوقات التي يُفترض بها أن تكون الأكثر إثارة والأشدّ متعة في حياتك؟».

أغمضت عينيها لتُقصيه عن ناظريها وتمنعه من رؤية ما تفكّر فيه. لكنّه كان متأكّداً من نجاحه في التأثير عليها. فهي على الأقل لم تنتزع يديها بعيداً عن يديه.

ـ ماذا سيحدث إن ألمّ بكِ المرض والوهن وأنتَ تعيشين وحدك؟ مع هذا الغثيان الذي أصابكِ هذا الصباح، أنتِ بحاجة إلى من يلازمك ويمدّ لك يد المساعدة. آنا، أرجوكِ أن تعودي معي... وإن يكن ذلك مؤقتاً فقط، إلى أن يولد الطفل. على الأقل، أعطِ نفسك واعطني فرصة لأثبت لك أنّي أحبك بصدق وأنّي لن أتسبّب لك بالأذى مرة ثانية.

فتحت عينيها ببطء، فظنّ وهو يحدّق فيها أنّه رأى شيئاً من التردد يسبح في غورهما. تابع: «بعد أن يولد الطفل... إذا قرّرت أنّك لا تحتملين العيش معي تحت سقف واحد سأدعكِ تذهبين».

رغم أنه كان يأمل في ألاّ تُضطره للتفوّه بتلك الكلمات. لكنّ أمله الحقيقي هو في أن يسمح له الوقت بأن يثبت لها حسن نواياه. فكيف يمكنه أن يتخلى بسهولة عن المرأة التي يحبّها أكثر من الحياة نفسها؟

سيقوم بكلّ ما يلزم ليبرهن لها بكلّ الوسائل الممكنة أنّ حبّه لها مخلص وصادق، وأنّه يثق بنواياها الحسنة في كلّ شيء.

ـ إن أنا أتيتُ معك.. وأقول «إن»، فسيكون ذلك بشرط واحد.

بدا له أنّه يستمع إلى موسيقى أطربت أذنيه بنغماتها العذبة: «سمِّه لي». كان واثقاً من نفسه، فما من شيء في هذه الدنيا أسوأ من عدم مجيئها معه.

ـ أن نستمرّ في النوم في غرفتين منفصلتين. سيكون زواجاً بالاسم فقط، من أجل الطفل.

لم يكن هذا هو الجواب الذي أراد سماعه، لكنّه أفضل من لا شيء. آلمه جداً ألاّ تكون راغبة في مشاركته غرفة نومه وسريره. لكن مع قليل من الأمل ستغيّر رأيها وموقفها ما إن تدرك مدى عمق مشاعره نحوها وصدقها.

أومأ برأسه ببطء قائلاً: «إذا كان هذا ما تريدينه حقاً».

ـ إنّه كذلك.

علمت آنا أنّها لا بُدّ فقدت عقلها بقبولها طلب أوليفر. لكنها لم تستسغ فكرة المرور بتجربة الحمل وحدها. وقد علم أوليفر هذه الحقيقة... كان الحمل يخيفها. لعلّ كلّ الأمهات الحديثات يشعرن مثلها.

بالرغم من انهيار الثقة بجميع أشكالها ودرجاتها بينهما، إلاّ أنّها، ولدهشتها، لا تزال تحبّه. لن تدعه يدرك هذه الحقيقة رغم الصعوبة التي ستعانيها لإخفائها عنه.

وصلا إلى المنزل في ساعة متقدّمة من الليل. لم تشأ آنا الاعتراف بذلك، إلاّ أنّها شعرت بالفعل بأنّها في بيتها عندما دخلت إلى المنزل.

لقد أمضيا هنا ستّة أشهر مفعمة بالسعادة، فكان الجوّ عابقاً بطيب الحبّ الذي خيّم فيه في يوم من الأيام. إنّه لمن المؤسف حقاً أن يهدم أوليفر كلّ ما بناه سوياً.

وضع أوليڤر حقائبها في الغرفة التي كانت تشغلها عندما سكنت هنا في المرّة الأخيرة. وسألها باهتمام ظاهر: «أهذا ما تريدين؟ ليس عليكِ أن تنامي هنا، تعلمين ذلك. أنا أفضّل أن...».

فقاطعته بثقة بالغة: «هذا ما أريده».

ـ هل أساعدكِ في توضيب أغراضكِ؟

ـ لا، شكراً. أستطيع القيام بذلك بمفردي.

ـ إذن، سأطلب من السيّدة غرين أن تحضّر لنا كوبين من العصير الطازج وشطيرتين.

هزّت آنا رأسها: «لا تزعج نفسكَ من أجلي، فأنا متعبة جداً. سآوي إلى الفراش على الفور».

قطب أوليڤر جبينه وتجهّم وجهه: «هل أنتِ بخير، يا آنا؟ كان يوماً طويلاً وشاقاً، أعلم ذلك. هل أنتِ متأكّدة من..؟».

بدا الانزعاج واضحاً في عينيها: «أوليڤر.. أنا متأكّدة جداً. كلّ ما أريده الآن هو الخلود إلى النوم».

كانت الليلة السابقة ليلةً شاقةً خيّم عليها جوّ من التوتر المشحون منعها من النوم طوال الليل، فظلت تحدّق في الظلام وهي تتوقع أن يدخل أوليڤر إلى غرفتها في أيّ لحظة. والحقيقة أنّها ما كانت لتستطيع إبعاده عنها. فمهما يملي عليها عقلها من تحليل منطقي، إلاّ أنّ قلبها كان يدفعها إلى عكس ذلك.

أما أوليڤر، فقد عانى هو أيضاً من الأرق طوال اللّيل. وقد سمعته آنا ينزل السلالم إلى الطابق السفليّ بعد الثانية من منتصف الليل، وكادت أن تلحق به، آملة في أن يساعدها على النوم فنجان من الحليب الساخن. إلاّ أنها قررت في النهاية ألاّ تفعل، فالمجازفة كبيرة جداً.

كانت مشاعرها كلها متلهّفة إليه، بحيث ستنتهي بين ذراعيه. وبم سيفيدها ذلك؟ لعله سيظن أنها سامحته، في حين أنها لم تفعل. وهي تشك في أن تقدر على ذلك يوماً.

لكن، أتراها تنام الليلة بالرّغم من التعب الذي تعاني منه؟

طبع أوليڤر قبلة رقيقة على جبينها المنهك وقال: «سأتمنى لكِ ليلة هانئة ونوماً عميقاً، يا آنا. إن احتجتِ لأيّ شيء، ليس عليك سوى...».

ـ أرجوك إذهب، يا أوليڤر. أنا بخير حقاً؛ متعبة قليلاً فقط. كفّ عن إزعاجي.

ابتعد عنها رغماً عنه، فارتمت آنا على السرير بكامل ثيابها. هل ارتكبت خطأً جسيماً حين سمحت له بإقناعها بالعودة إلى هنا؟ هل سيقوم برعايتها والسهر على راحتها كالأم الحنون؟

أغمضت عينيها. ليس هذا ما أرادته، أرادت أن تبقى بمفردها؛ أرادت أن تتصرّف حسب طريقتها هي من دون أن تسمح له بالتدخّل والإزعاج. فقد أضاع كلّ حقّ له بأن يكون زوجاً لها، ستوضح له غداً هذا الأمر بشكل نهائي.

استغرقت آنا مباشرة في نوم هانىء عميق، استيقظت خلاله بضع مرات وهي تشعر بحاجة ملحّة للدّخول إلى المرحاض. وشكرت السماء على وجود مرحاض داخل غرفتها، فلو كان عليها السير في الممرّ في كلّ مرة، لخرج أوليڤر لملاقاتها على الفور.

ارتجفت من البرد وهي ترمي بثيابها جانباً وترتدي ثياب النوم. لكنّها ما إن عادت واندسّت تحت الغطاء الدافىء حتى غطت في نوم عميق.

في الصباح التالي، أيقظتها السيدة غرين وهي تحمل لها الشاي وبعض قطع البسكويت: «كُلي هذه، يا عزيزتي، ومن ثمّ استلقي مجدّداً لنصف ساعة أخرى. لن تشعري حينها بالغثيان، كانت هذه الطريقة تفيدني في كلّ مرة».

جلست آنا في السرير بصعوبة وبدا على وجهها الارتباك: «هل أخبركِ أوليڤر؟».

ـ بالطبع أخبرني. أنا سعيدة جداً لكما أنتما الاثنين. أنا سعيدة حقاً.

ـ لقد عدتُ إليه.

فأشارت مدبّرة المنزل بدهاء: «لكن، ليس إلى السرير نفسه. لا أرى ذلك مؤشّراً جيداً. ليست لديّ أيّ فكرة عما حدث بينكما، لكنّكِ، ستتمكّنين وأوليڤر من إصلاح الأمور. أعلم أنّ أوليڤر يأمل في ذلك إلى حدّ بعيد، كان مزاجه لا يُطاق عندما رحلتِ. لقد خُلقتما أنتما الاثنان لتعيشا سوياً. لا تتخليا عن حبكما بسهولة».

عندما نزلت آنا أخيراً من غرفتها، كان أوليڤر في انتظارها. أملت أن تجده قد ذهب إلى العمل، فلم تُرده أن يغيّر أيّاً من عاداته اليومية من أجلها، وتمنّت ألاّ يتكرر الأمر بشكل تلقائي.

ـ ماذا تفعل هنا؟

طرحت عليه السؤال بلا مبالاة وهي تسير نحو غرفة الطعام لتناول الفطور. لكنّ مشاعرها كانت في الوقت نفسه تتحسّس وجوده بشغف ولهفة، حتى كادت تدفعها إلى حضنه.

قال أوليڤر: «أخذتُ لكِ موعداً من الطبيب».

امتعضت آنا وبدا الانزعاج على ملامحها من الطريقة التي بدأ يتحكّم فيها بكل شيء، وفرحت لأنها لم تستجب لنداء أحاسيسها الملحّ. أجابته: «أنا قادرة على القيام بذلك بنفسي، شكراً لك».

ـ نعم، أعلم ذلك. لكنّي لم أكن واثقاً من السرعة التي ستقومين فيها بذلك، وخطر لي أنّه من المهمّ أن...

ـ لا أحتاج لأن تفكر عنّي.

ثم شعرت أنّها تبالغ بالقسوة عليه، فهو يبدو وكأنّه لم يعرف طعم النوم منذ أكثر من شهر، رغم أنّه استحمّ هذا الصباح وحلق ذقنه للتوّ، وارتدى قميصاً أزرق وبنطالاً من الكتّان الرقيق. فاستطردت قائلة: «أنا آسفة، فأنتَ معنيّ بالطبع. متى هو الموعد؟».

ـ في العاشرة والنصف. لدينا متّسع من الوقت. هل يمكنك تناول طعام الفطور الآن؟

ـ قد أتناول قطعة من الخبز المحمّص.

ـ هذا ليس بالكثير.

ـ هذا كل ما أريده. فأنا أذكر أنّ أختي قالت لي ذات يوم إنّ الوجبات الخفيفة كانت تريحها أكثر من الوجبات الثقيلة الدسمة.

أكّد لهما الطبيب أنّها حامل بالفعل. وصافح أوليڤر وآنا وتمنّى لهما أن ينجبا طفلاً يتمتّع بصحّة جيدة: «من المؤسف أنّ والدك لن يتمتّع برؤية حفيده».

أومأ له أوليڤر برأسه وخرجا من العيادة. وبعدما لمحت آنا تعابير وجهه، قالت له بلطف: «كان ذلك فظاً بعض الشيء أن يذكر والدك هكذا».

ـ أنت لا تعرفين شيئاً. فوالدي، ما كان ليريد أن يرى حفيده أو يتعرّف إليه.

صدمتها الحقيقة القاسية: «هل هذا صحيح؟ هل أنا السبب في ذلك؟ لأنّه لم يحبّني قط؟».

بحق السماء! هل بلغت قسوة إدوارد وتعجرفه هذا الحدّ؟

أجابها أوليڤر بنفاذ صبر: «بالطبع لا، بل لأنّه لم يحبّني أنا. اصعدي إلى السيّارة وسنكمل حديثنا في المنزل، إن كان الأمر يهمّك حقاً».

لم يكن إدوارد يحبّ ابنه؟ كان ذلك خبراً مفاجئاً لآنا، فراحت تبحث عن شروحات له بينما كان أوليڤر يقود السيارة في طريق العودة. لم تتنبّه لذلك البتّة، فلم يظهر أي شيء يؤكد ذلك، على إدوارد وابنه.

عندما وصلا إلى المنزل، قالت له: «أخبرني عن والدك. لم يسبق لك أن ذكرت لي وجود أيّ مشكلة من أي نوع بينكما».

أخذ أوليڤر نفساً عميقاً وأخرجه ببطء شديد ليخفّف من حدّة توتره وهما يجلسان: «هذا لأنّنا تمكنّا من التوصّل إلى صيغة للتعايش بيننا. كنت أحترمه جداً، فهذا أمر اعتدتُ عليه منذ نشأتي الأولى، كما درّبني على إطاعة أوامره منذ نعومة أظافري. لهذا السبب، كنت أعيش هنا ولم

أنتقل بعيداً على الفور. كان بحاجة إليّ، رغم أنه لم يعترف بذلك قطّ. لكنّ ذلك لا يعني أنّي لم أكن مشمئزّاً من الأسلوب الذي كان يعاملني به».

ـ لم يعجبه أن يُضطرّ للاهتمام بتربيتك! هل هذا ما تريد قوله؟

ـ شيء من هذا القبيل. دخلتُ عالم الأعمال معه لكي أثبت له أني لستُ ذاك المغفّل الذي كان ينعتني به. حتى بعد تقاعده من العمل، لم يستطع الاعتراف بأنّي أقوم بالعمل جيداً عوضاً عنه، وكنّا نتجادل كثيراً.

خطر لآنا أنّ إحدى هذه المجادلات أدّت إلى موته. لعلّها لم تحب إدوارد، والآن باتت لا تحبّه أكثر بعدما علمت كيف كان يعامل أوليفر. لكنّ هذا لا يعني أنّها لم تشعر بنوع من التعاطف معه. سألته: «أعتقد أنّ هذا يفسّر الطريقة التي عاملني أنا بها».

ـ لا، على الإطلاق. لقد تزوّج بروزماري على عجلة، من دون أن يتسنّى له الوقت لمعرفتها أكثر، فظنّ أنّه متيقّن من النهاية التي سنصل إليها. كان سيتقبّلك مع الوقت.

ـ لا، لم يكن ليفعل. في الواقع، عرض عليّ والدك المال لكي لا أتزوجك.

انتفض أوليفر واقفاً وعيناه تسطعان من الدهشة: «ماذا فعل؟ لماذا لم تخبريني؟».

شرحت له الأمر بهدوء: «لأني تدبّرتُ الأمر وحدي. مزّقت الشيك وأخبرته أنّي أحبك، وأنّ ذلك لن يتغيّر مثقال ذرّة لو كنتَ مفلساً».

تحوّل بريق عينيه إلى نور يشعّ بالإعجاب والإكبار: «أراهن أنّ ذلك لم يعجبه البتّة».

ـ لا، لا أعتقد ذلك.

صمتت آنا قليلاً لا تدري إن كان عليها أن تخبره بالقصة كاملة. فقال لها مقاطعاً: «هناك المزيد، أليس كذلك؟».

كانت قد نسيت السهولة التي يستطيع بها أوليفر أن يقرأ أفكارها، فافترّ ثغرها عن ابتسامة هادئة رقيقة: «أنت تعرفني جيداً».

ـ إذن، أخبريني بكلّ شيء. عليّ أن أعرف الحقيقة كاملة دفعة واحدة.

ابتلعت آنا ريقها بصعوبة، وتابعت: «لقد طردني، رماني خارجاً. قال لي إنّ هذا المنزل ملكٌ له وأعطاني مهلة أسبوع واحد لأنتقل منه».

أصاب أوليفر الذهول، وأخذ الدم يغلي في عروقه، فعلا الاحمرار وجهه، احمرار الغضب والسخط، وصاح بها: «ورحلتِ... رحلتِ من دون أن تأتي لرؤيتي؟ من دون أن تخبريني بما حدث؟».

ثم تنبّه لعظم ما فعله والده، فقفز واقفاً وهو يصيح: «يا له من عجوز كاذب شرّير! ربما كان من الأفضل ألاّ تخبريني، لأني كنتُ سأرتكبُ شيئاً قد أندم عليه لاحقاً... آنا... آه آنا، لمَ لم تخبريني؟».

أجابته بهدوء: «ظننتُ أنّك لن تبالي. فأنت لم تأتِ مرّة واحدة إلى المنزل لتحاول مناقشة الموضوع، وأنا ما كنت لأقصد البيت الكبير ووالدكَ يسكن فيه. كانت كبريائي تمنعني من ذلك».

ـ إذن، لو أنّ والدي لم يمت، لما كنّا عدنا إلى بعضنا. هل هذا ما تقولين؟

ـ هذا ممكن. فقد كنتُ أتألّم جداً إلى حدّ بتُّ معه غير مستعدّة للمواجهة، وأنتَ حسمتَ أمركَ واتّخذتَ قرارك، وهكذا كان.

أغمض أوليفر عينيه ليُدينَ نفسه بما اقترفت يداه: «لا أدري إن كنتُ ألعن والدي أم لا، لأنّي كنتُ أنا نفسي جديراً بذلك أكثر منه».

ـ بإمكانك تكرار ذلك مجدّداً. فأنا أوافقك الرأي.

لكن، بالرغم من كلّ ما انهار بينهما، كانت آنا لا تزال تشعر نحوه بالحبّ. لم تستطع يوماً تفسير ذلك، إلاّ أنّه شعور أقوى من أيّ شيء آخر، وأقوى منها هي بالتأكيد. لكنها تفضّل الإحجام عن الاقتراب منه، لأنّ الجاذب الجسديّ ليس كافياً لوحده لبناء زواج ناجح. عليها أن تتذكّر هذا دوماً، عليها أن تتأكّد من حبّه لها. فهذا الخطأ كان منذ البداية السبب الذي أوصلهما إلى هذه النهاية المحزنة.

سألته: «لماذا لم تقل لي إنّ هذا المنزل ملك لإدوارد؟».

هزّ كتفيه: «لم أفكر في هذا قط. لكنّي أظنّ أنّ علينا بيع كلّ شيء قريباً. وأعتقد أنّ علينا الاستقرار في منزلنا الجديد قبل ولادة الطفل».

منزلنا! منزلنا؟ هل كانت هذه خطوة حكيمة؟ عليها أن تتوصّل إلى مسامحته على أخطاء عديدة قبل أن يجمعها به أيّ ارتباط، والمنزل الجديد يعني الارتباط. هذا يعني أنّه يتوقّع منها أن تمضي ما تبقّى من حياتها معه.

ـ لا تبدين واثقة من هذه الخطوة، يا آنا.

لم تدرك أنّه يراقبها، أو أنّ تعابير وجهها كانت واضحة ومقروءة إلى هذا الحدّ. فهزّت كتفيها: «قلتَ لي إنّنا سننتظر ونتريث إلى أن يولد طفلنا، وإن لم نتوصّل في هذه الفترة إلى إصلاح الأمور، فسأكون حرّة في الذهاب والابتعاد عن هنا. لذا، لا أفهم لمَ علينا الانتقال قبل أن نتأكّد من...».

سطع بريق عينيه بحدّة وهو يقف بانفعال قائلاً: «قد تكونين غير متأكّدة، يا آنا. لكن، في ما يتعلّق بي، فأنا واثق ومتأكّد تماماً. نحن زوج وزوجة، وهكذا أريدنا أن نبقى».

***

٩ ـ من ينهار أولاً؟

ظنّت آنا في البدء أنّ أوليفر قام بخداعها. فقد أعادها إلى هنا بعد أن وعدها بأن تكون حرّة في الرحيل إن لم يتمكّنا من إصلاح الأمور. وها هو الآن يقول إنّ لا نيّة لديه البتّة في السماح لها بالرحيل.

تابع كلامه قبل أن يتسنّى لها الردّ عليه: «أنا أحبّك آنا، وأرغب في أن أعرف أنّك ما زلت تحبينني. الجراح لم تلتئم بعد، وهذا ما أفهمه، إلاّ أني عازم على التعويض عليك عن سلوكي المشين والحقير الذي عاملتكِ به. لن أقدّم لكِ مجدداً الأسباب التي تدفعكِ إلى التوقّف عن حبّي. في الواقع، ستشكرينني لأني لحقتُ بكِ».

التوت شفتاها وهي تجيب: «إنّه تصريح خطير، يا أوليفر».

فقال بحماس: «لن أخذلكِ ما دمتُ حيّاً. أعدكِ بذلك. والآن أقترح أن أذهب وأطلب من السيّدة غرين أن تُعدّ لنا الغداء. هل تستطيعين تناول الطعام؟».

رأت آنا أن لا داعي للجدال، فالوقت وحده كفيل بإظهار الحقيقة: «في الواقع، أنا أشعر بالجوع. سأتصل بكريس في هذه الأثناء لأعلمه بعودتي».

ـ فكرة جيّدة. ربّما عليكِ دعوته لتناول طعام العشاء معنا يوماً ما. فقد آن الأوان لألتقي بشقيقكِ هذا.

تكلّمت قبل أن تُدرك ما تقول: «ألا زلت تظنّ أنّ توني يهيم في مكانٍ ما في الجوار؟».

www.elromancia.com

- لا تذكّريني بمدى غبائي. لا أعلم لمَ ظننته متورّطاً في القصّة. حسناً، فقد قلتِ لي يوماً إنّه شاب وسيم، والرجل الذي شاهدكِ والدي برفقته يطابق هذا الوصف. ما كنتُ أظنُّ أنّ شقيقكِ أشقر الشعر.

- لعلّ رحيل والدتك لتلك الأسباب الأنانية قد ترك أثراً عميقاً في نفسك، وجعلكَ تشكّك بمن حولك كلهم.

أجاب بمرارة: «لم يكن السبب رحيل والدتي، بل سلوك والدي على الأرجح».

أرادت آنا أن تقترب منه، أن تأخذه بين ذراعيها وتقول له إنّ الأمور استقامت الآن، لكنّها لم تكن متأكّدة بعد. فالوقت لا يزال مبكراً جداً. أنّى لها أن تعرف أنّ أوليڤر لن يتحامل عليها ويخذلها مرّة أخرى إذا ما حدث خطب ما؟

لم يكن البقاء بعيدة عنه سهلاً كذلك. فقد راح أوليڤر في الأسابيع التي تلت يبالغ في رعايتها والسهر على راحتها، ولا يتوقّف عن سؤالها عن صحّتها والتأكد من حصولها على كل ما تريده وحثّها على الخلود إلى الراحة.

بدأ الوضع يخنقها فشعرت بالسعادة حين أعلمها بضرورة ذهابه إلى العمل. ثم عرض المنزلين للبيع، فبدأ سيلٌ من المهتمّين بالشراء يتوافد يومياً إلى المكان. وكانت آنا تبتعد عن الطريق وترفض التدخّل كلّما جاء الوسيط ليري أحدهم المكان.

كانت تخرج أحياناً بحثاً عن منزل يناسبها هي وأوليڤر. فقد قال لها: «سأترك الأمر لكِ كلياً، فإن كنتِ سعيدة، سأكون كذلك أنا أيضاً».

كانت تلك مهمّة شاقة، خاصة أنّها لا تزال غير واثقة من دوام زواجهما. إلاّ أنّ ذلك جعلها على الأقل تقوم بعمل ما يشغل وقتها. وعندما وقعت عيناها على كوخ في قلب الريف في «كامبريدجشاير»، استعادت ذاكرتها صورة الكوخ في إيرلندا حيث عرفت هي وأوليڤر طعم السعادة. فعلمت على الفور أنّها سترغبُ في العيش هنا.

كان ذلك ضرباً من الجنون الفعليّ. فلمَ عساها تريد ما يذكّرها بحياة مضت وولّت؟ أم أنّها لا تزال تحيا على أمل في أن تعود الأمور بينهما ذات يوم إلى سيرتها الأولى؟ هل هذا ما يحتلّ الحيّز الأكبر في لاوعيها؟

لم يكن الكوخ معروضاً للبيع، فلم تدرِ لماذا توقّفت عنده لإلقاء نظرة عليه. كان أكبر بكثير من كوخ شقيقتها في إيرلندا، وبدا أنّه خضع للعديد من الإضافات والتعديلات مع مرور السنين. فبات الآن أشبه بقصر وسط عِزْبة كبيرة، مع احتفاظه بهيئة الكوخ وجوّه الحميم، بنوافذه الخشبية وجدرانه المطليّة باللون العاجيّ ومواقده وأرضيّته الخشبية، وحديقته الشاسعة التي توفّر مكاناً مثالياً يلعبُ فيه الأطفال.

قطعت آنا حبل أفكارها لتسترجع في ذهنها كلمة «أطفال». هل تخطّط لإنجاب المزيد من الأطفال من أوليڤر؟ هل وطّنتِ النفس لا شعورياً لتقبّل فكرة دوام زواجهما واستمراريّته؟

لم تستطع الإجابة على تساؤلاتها، فقد كانت في جزءٍ منها تتوق إلى تحقيق ذلك، وفي جزء آخر تشعر بالامتعاض والنفور من الطريقة التي عاملها بها بحيث ظلّت تشكّ في قدرتها على مسامحته يوماً.

ظلّت واقفة تجيل النظر في الكوخ ومحيطه عندما رأت الدخان يتصاعد من إحدى مداخنه، فأرادت أن تذهب وتقرع الباب وتطلب السماح لها بالدخول. أرادت أن تجلس على أريكة وثيرة بالقرب من نار الموقد وتدفىء يديها وأصابع رجليها وتحلم بأنّها في منزلها.

على العشاء ذلك المساء، أخبرت أوليڤر بأمر الكوخ قائلة له: «لم يكن معروضاً للبيع، إلاّ أنّه منزل أحلامي. سأكون سعيدة جداً بالعيش في مكان كهذا».

بدا الحماس في نبرتها فابتسم أوليڤر بتقدير وإعجاب: «إن كان ذلك ما ترغبين فيه، فستحصلين عليه. خذيني لأراه، ومن ثم نذهب للبحث عن مكان مطابق له».

هكذا، انطلقا سوياً يوم الأحد باتجاه الكوخ. وعندما عاد صاحبه من

ـ لا تذكّريني بمدى غبائي. لا أعلم لمَ ظننته متورّطاً في القصّة. حسناً، فقد قلتِ لي يوماً إنّه شاب وسيم، والرجل الذي شاهدكِ والدي برفقته يطابق هذا الوصف. ما كنتُ أظنُّ أنّ شقيقكِ أشقر الشعر.

ـ لعلّ رحيل والدتك لتلك الأسباب الأنانية قد ترك أثراً عميقاً في نفسك، وجعلكَ تشكّك بمن حولك كلهم.

أجاب بمرارة: «لم يكن السبب رحيل والدتي، بل سلوك والدي على الأرجح».

أرادت آنا أن تقترب منه، أن تأخذه بين ذراعيها وتقول له إنّ الأمور استقامت الآن، لكنّها لم تكن متأكّدة بعد. فالوقت لا يزال مبكراً جداً. أنّى لها أن تعرف أنّ أوليڤر لن يتحامل عليها ويخذلها مرّة أخرى إذا ما حدث خطب ما؟

لم يكن البقاء بعيدة عنه سهلاً كذلك. فقد راح أوليڤر في الأسابيع التي تلت يبالغ في رعايتها والسهر على راحتها، ولا يتوقّف عن سؤالها عن صحّتها والتأكد من حصولها على كل ما تريده وحثّها على الخلود إلى الراحة.

بدأ الوضع يخنقها فشعرت بالسعادة حين أعلمها بضرورة ذهابه إلى العمل. ثم عرض المنزلين للبيع، فبدأ سيلٌ من المهتمّين بالشراء يتوافد يومياً إلى المكان. وكانت آنا تبتعد عن الطريق وترفض التدخّل كلّما جاء الوسيط ليري أحدهم المكان.

كانت تخرج أحياناً بحثاً عن منزل يناسبها هي وأوليڤر. فقد قال لها: «سأترك الأمر لكِ كلياً، فإن كنتِ سعيدة، سأكون كذلك أنا أيضاً».

كانت تلك مهمّة شاقة، خاصة أنّها لا تزال غير واثقة من دوام زواجهما. إلاّ أنّ ذلك جعلها على الأقل تقوم بعمل ما يشغل وقتها. وعندما وقعت عيناها على كوخ في قلب الريف في «كامبريدجشاير»، استعادت ذاكرتها صورة الكوخ في إيرلندا حيث عرفت هي وأوليڤر طعم السعادة. فعلمت على الفور أنّها سترغبُ في العيش هنا.

كان ذلك ضرباً من الجنون الفعليّ. فلمَ عساها تريد ما يذكّرها بحياة مضت وولّت؟ أم أنّها لا تزال تحيا على أمل في أن تعود الأمور بينهما ذات يوم إلى سيرتها الأولى؟ هل هذا ما يحتلّ الحيّز الأكبر في لاوعيها؟

لم يكن الكوخ معروضاً للبيع، فلم تدرِ لماذا توقّفت عنده لإلقاء نظرة عليه. كان أكبر بكثير من كوخ شقيقتها في إيرلندا، وبدا أنّه خضع للعديد من الإضافات والتعديلات مع مرور السنين. فبات الآن أشبه بقصر وسط عِزْبة كبيرة، مع احتفاظه بهيئة الكوخ وجوّه الحميم، بنوافذه الخشبيّة وجدرانه المطليّة باللون العاجيّ ومواقده وأرضيّته الخشبية، وحديقته الشاسعة التي توفّر مكاناً مثالياً يلعبُ فيه الأطفال.

قطعت آنا حبل أفكارها لتسترجع في ذهنها كلمة «أطفال». هل تخطّط لإنجاب المزيد من الأطفال من أوليڤر؟ هل وطنتِ النفس لا شعورياً لتقبّل فكرة دوام زواجهما واستمراريّته؟

لم تستطع الإجابة على تساؤلاتها، فقد كانت في جزءٍ منها تتوق إلى تحقيق ذلك، وفي جزء آخر تشعر بالامتعاض والنفور من الطريقة التي عاملها بها بحيث ظلّت تشكّ في قدرتها على مسامحته يوماً.

ظلّت واقفة تجيل النظر في الكوخ ومحيطه عندما رأت الدخان يتصاعد من إحدى مداخنه، فأرادت أن تذهب وتقرع الباب وتطلب السماح لها بالدخول. أرادت أن تجلس على أريكة وثيرة بالقرب من نار الموقد وتدفىء يديها وأصابع رجليها وتحلم بأنّها في منزلها.

على العشاء ذلك المساء، أخبرت أوليڤر بأمر الكوخ قائلة له: «لم يكن معروضاً للبيع، إلاّ أنّه منزل أحلامي. سأكون سعيدة جداً بالعيش في مكان كهذا».

بدا الحماس في نبرتها فابتسم أوليڤر بتقدير وإعجاب: «إن كان ذلك ما ترغبين فيه، فستحصلين عليه. خذيني لأراه، ومن ثم نذهب للبحث عن مكان مطابق له».

هكذا، انطلقا سوياً يوم الأحد باتجاه الكوخ. وعندما عاد صاحبه من

نزهة قصيرة مع كلبه ذهب أوليڤر ليكلّمه.

خرجت آنا من السيّارة ووقفت أمام المنزل وأخذت تراقبه بدقّة. لقد أحبّت الكوخ الآن أكثر من المرة الأولى، فهو مثاليّ حقاً. أنّى لهما أن يجدا مكاناً يشبهه إن لم يكن يطابقه؟

عاد أوليڤر مبتسماً ليزفّ لها الخبر: «لن تصدّقي هذا! لكنّ الرجل يفكّر منذ فترة وجيزة ببيع الكوخ. إنّه كبير جداً بالنسبة إليه الآن بعد أن تُوفيت زوجته. إلاّ أنّه لا يحتمل فكرة توافد الغرباء إلى المكان للنظر والتجوال فيه. إذا كنتِ تريدينه، فهو لكِ. إنّه ينوي الذهاب والعيش مع ابنته في منطقة أخرى».

لم تستطع آنا منع نفسها من احتضانه فرحاً، فلفّت ذراعيها حول عنقه بحماس: «أوه، أوليڤر، هل هو جادّ في ما يقول؟».

ـ جادّ تماماً. ويقول إنّ بإمكاننا الدخول وإلقاء نظرة متفحّصة الآن إن أردتِ.

ـ لا أكترث لمظهره من الداخل، فأنا أعرف أنّه سيكون مثالياً. أكاد لا أصدّق كم أنّنا محظوظان!

احتضنها أوليڤر بشدّة بين ذراعيه وهو يبتسم برضى لرؤية وجهها المشرق بالسعادة: «لم أركِ سعيدة بهذا القدر منذ أن عُدتِ إلى المنزل».

كيف جرى ذلك، لا تعلم آنا، لكنّها في اللّحظة التالية انحبست أنفاسها وفقدت إحساسها بالواقع لتستسلم لدوّامة من المشاعر القويّة انسلّت عبر جسدها كلّه. ورغم علمها بضرورة الابتعاد عنه، وصفعه حتى، لكنّها بطريقة ما عجزت عن ذلك.

تركته يعانقها على مرأى من صاحب الكوخ، وتاهت في عاصفة من الأحاسيس المضطربة التي كانت تجيش في صدرها منذ وقت طويل. وغرقت في عالم من النشوة جعلها تدرك أنّها كانت تعاقبُ نفسها بمنع أوليڤر من الاقتراب منها. وعندما أفلتها فجأة شعرت وكأنها حُرمت من الجنّة.

توقّعت منه أن يعتذر ويعترف بتخطّيه للحدود التي اتفقا عليها وبنكث الوعد الذي قطعه لها، لكنّه لم يفعل. بل بدا في المقابل راضياً عمّا فعله كلّ الرضى وهو يمسك يدها ويرافقها إلى المنزل.

كان الكوخ من الداخل كما توقّعته بترتيبه وتنسيقه وتوزيع غرفه. إذ ضمّ غرفة جلوس بمساحة متوسّطة وردهة كبيرة وغرفة طعام وغرفة مكتب، فضلاً عن مطبخ رائع بفرشه وتجهيزاته الكاملة، وأربع غرف نوم، اثنتان منها تضمّان حماماً خاصاً. كان الكوخ مثالياً.

سألهما صاحب المنزل: «ما رأيكما؟».

أجابت آنا: «إنّه رائع. إنّه مطابق تماماً لما نريده. أكاد لا أصدّق كم أنّنا محظوظان. هل تريد حقاً أن تبيعه؟».

ـ أستطيع إخلاءه غداً إن استطعت.

فقال أوليڤر: «سأرى محاميّ غداً صباحاً».

وصافح صاحب المنزل متّفقين ضمنياً على إتمام عملية البيع.

فعلّق الرجل قائلاً: «يسعدني أن أتخلّى عنه لشابّين مُغرمين كما يبدو بوضوح. إنّ رؤيتكما سوياً تسرُّ قلبي وناظريّ، فأنتما تذكّرانني بزوجتي وأنا عندما تزوّجنا. كنا نتعانق طوال الوقت، وأتمنّى لكما السعادة التي عرفناها نحن في ما مضى».

التفّت ذراع أوليڤر حول آنا وقال بثقة بالغة: «ما من شكّ في الموضوع».

شعرت آنا بالخداع لكنّها رفعت رأسها نحو أوليڤر وهي ترسم على ثغرها الابتسامة التي يتوقّعها الرجل منها.

عندما عادا إلى السيّارة، سألته مستفهمة: «هل أحببتَ المكان بقدر ما أحببته أنا؟».

ـ لا شكّ في ذلك. سنتمكّن فيه من الشروع في بداية جديدة وطيّ صفحة الماضي إلى الأبد.

لكنّه التفتَ إليها قبل أن يقلع بسيّارته وسألها: «هل يعني تجاوبكِ مع

عناقي أنك سامحتني أخيراً؟».

قست آنا قلبها وهزّت رأسها بالنفي، فهي لا تريد إعطاءه آمالاً واهية كاذبة: «كانت لحظة من لحظات السعادة بسبب الكوخ، ليس إلاّ».

ارتفع حاجبا أوليڤر في تشكيك: «لم يبدُ عناقك كأنّها لا تعني شيئاً».

ـ أنا لا أقول إنّ مشاعري نحوك زالت وماتت، يا أوليڤر. لكن، بعد الطريقة التي عاملتني بها، هل تتوقّع مني حقاً أن أهرول مجدّداً لأرتمي بين ذراعيك بهذه السرعة؟ في الواقع، قد لا يحدث ذلك أبداً. فعندما يتهمك زوجكَ بالسرقة من دون تردد، يمرّ وقت طويل قبل أن تتمكن من تخطي الأمر. هلاّ ذهبنا من فضلك؟

لم ينبس أوليڤر بكلمة واحدة أخرى، بل انطلق بالسيّارة وقد بدا على ملامحه الذهول وخيبة الأمل الممزوجة بالغضب والحزن معاً. وخطر لآنا أنّه يستحقّ ذلك، فمن غير المعقول أن يرمي الناس بالحجارة من دون أن يتعرّض هو للأذى والألم بدوره.

لم يذهبا إلى المنزل مباشرة، كما توقّعت. بل أخذها أوليڤر إلى أحد المطاعم التي يفضلها على ضفّة النهر لتناول طعام الغداء. كانت آنا قد توقّفت عن الشعور بالغثيان صباحاً وأصبحت من جديد قادرة على الاستمتاع بتناول وجباتها. لذا، سرّها أن يصطحبها أوليڤر لتناول الطعام خارجاً.

التزم أوليڤر الصمت والهدوء في البدء، غارقاً في أفكاره الخاصة وانفعالاته، ممّا حمل آنا على التساؤل عما إذا بالغت في القسوة عليه بعض الشيء من دون أيّ داعٍ لذلك. لكن، لمَ عليها أن تدعه يتملّص ممّا فعله؟

ـ ما الذي تفكّرين فيه؟

التفتت آنا إلى أوليڤر ورأت عينيه تشعّان ببريق ذهبيّ حاد أصابها بالدوار: «ليس بالشيء الكثير. أمور مختلفة».

ـ هل يصدفُ أن تكون تلك الأمور أنتِ وأنا مثلاً؟

وارتفع حاجبه الداكن بثقة.

ـ ربّما.

تنهّدت آنا بعمق وهزّت كتفيها وهي تدّعي اللامبالاة.

ـ هل أنتِ نادمة على العودة إلى المنزل وإليّ؟

ـ لا.

كانت تلك إجابة مقتضبة جداً خرجت منها قبل أن يتسنّى لها التفكير فيها. لكنّها لم تنظر إليه، بل راحت تعبث بشوكة الطعام، تحرّكُ بها قطعة من البطاطا في طبقها وتهشّمها إلى قطع صغيرة جداً. وأضافت: «ليس كلياً».

ـ هل أمامنا أيّ فرصة لنستعيد حياتنا السابقة التي عرفنا خلالها طعم السعادة قبل أن يتدخّل غبائي لإفسادها؟

ظلّت آنا مشيحةً بنظرها عنه، رغم علمها بأنّ جوابها سيحدّد معالم مستقبلهما. بدا كأنّه تخلّى عن أمنيته بوجود أيّ أمل لهما. وهل تريد ذلك؟ هل تريد الانفصال عنه، وأن يذهب كلٌّ في طريقه؟ هل تريد أن يتقاسما الطفل، فينقلانه بينهما من منزل إلى آخر على مرّ السنين؟

كان جوابها عن تلك التساؤلات هو النفي حتماً. لكنّها أجابته: «أعتقد أنّ الفرصة متوفّرة، في الواقع».

لكن، لن يتمّ ذلك الآن، فهي ما زالت غير مستعدّة.

مد أوليڤر يده فوق الطاولة وأمسك بيدها قائلاً: «إن كان هناك أيّ أملٍ لنا، فأنا مستعدٌّ للانتظار. وإلاّ، فمن الأفضل أن ننهي الأمر الآن».

حدّقت آنا فيه، فرأت الألم يفرُّ من عينيه، الألم الذي كان يمزّقه إلى أشلاء، فكادت للحظة أن تستسلم له. لكنّ عليه أن يتعلّم الدرس.

لقد قدّم لها كلّ أنواع الاعتذارات آلاف المرّات، وأقسم لها بأنّه لن يتهمها بشيء كهذا مرة أخرى... لكنّ ذلك لم يهدّىء من روعها ولم يستطع أن يطيّب خاطرها. فالكلمات سهلة جداً؛ والأعمال والتصرّفات وحدها هي التي تُبدّل الشكّ باليقين وتحسم الوضع.

لذا، فهي بحاجة إلى بضعة أسابيع أخرى ربّما، أو إلى حين ولادة

الطفل. لكن، هل باستطاعتها أن تعيش معه طوال هذه المدّة وتلتزم بالنوم في غرفة مستقلة؟

ـ آنا؟

أدركت أنّ أوليڤر ما زال ينتظر جوابها. وعلمت من التجهّم البادي على وجهه وانقباض فكّيه أنّه ظنّ جازماً أنّها تريد الرحيل. فأجابته بنبرة هادئة: «سأبقى معك، يا أوليڤر. لكنّي بحاجة إلى المزيد من الوقت، ولا أريد أن تستعجلني أو تدفعني دفعاً. إن فعلت هذا، ستحملني على الرحيل والابتعاد».

أنارت ابتسامة مشرقة وجهه المتجهّم وبرقت عيناه بالأمل وهو يشدُّ بيده على يدها: «لن تندمي على قرارك هذا، يا آنا. أنا أعدك بذلك».

ابتسمت له ابتسامة واهنة وهزّت رأسها بطريقة تعبّر عن عدم ثقتها بذلك كلياً. ثم أخذت أصابع قدميها تلتفُّ مجدّداً في تجاوب معه وترتفع حرارة جسدها مع تسارع نبضات قلبها المضطربة... كلُّ هذا لأنّه أمسك يدها!

خلال الغداء، عاد أوليڤر إلى طبيعته، فبدا مرحاً ومحدّثاً لبقاً ومسلياً، فألفت آنا نفسها مرتاحة وهادئة كما لم تكن منذ مدّة طويلة. لعلّ المنزل الجديد هو الحل الأمثل. سيرميان بكلّ ذكرياتهما القديمة وآلامهما السابقة خارجاً وسيبدآن من جديد. وسيقع على عاتقها القيام بأمور عديدة ما أن ينتقلا إلى منزلهما الجديد. لم يكن بحاجة ماسّة إلى الديكور، لكنّها ستُسرُّ جداً بوضع لمساتها الخاصة عليه.

ـ كنتُ أفكر في المنزل. ما زلتُ لا أصدّق كم أنّنا محظوظان. يا لها من مصادفة غريبة أن يكون السيّد جونز راغباً فعلاً في بيعه!

قال أوليڤر وعيناه تسطعان بالبهجة والسرور: «لا بُدّ أنّ هذا يعني أنّه مقدّر لنا أن نحصل عليه. لقد ساعدكِ القدر في ذلك اليوم، يا حبيبتي. جعلكِ تقودين سيّارتكِ في ذلك الاتّجاه بالتحديد ودفعكِ إلى التوقّف والنظر إلى ذلك الكوخ بشكلٍ خاص».

ضحكت آنا: «أوليڤر، لم أكن أعلم أنّك تؤمن بهذه الأشياء».

ـ أنا لا أؤمن بها بشكل عام. لكن، أهناك تفسير آخر لما حدث؟ ما هو مقدّر، لا بدّ أن يحصل، أليس هذا ما يُقال؟

ـ هل ستأتي السيّدة غرين معنا؟

ـ إنّها لا تنفكُّ تحدّثني عن الطفل. أعتقد أنّها تتوق لمساعدتك في رعايته. سيكون ابني في حاجة ماسّة إلى الرعاية.

ـ إنّ ابنكَ هذا قد يكون فتاة.

ـ إن كانت رائعة مثلكِ، سأكون في غاية الرضى والسرور، وسننجب صبياً في المرّة القادمة.

ـ وكم ولداً ترغب في إنجابه يا سيّد «لانغفورد»؟

لم تكن آنا تمانع الحديث عن الأطفال، فهي تحبّ أن ترى أوليڤر سعيداً. لم تدركْ قبل ذلك مدى تعاسته وحزنه في هذه الأسابيع القليلة الماضية. فقد كانت غارقة في حزنها وألمها بحيث لم تعِ ما يعانيه هو.

ـ آه، أربعة على الأقلّ.

ثم رفع حاجبه الداكن في تساؤل مرح: «بالطبع، إنّ كلّ شيء يتعلّق باحتمال الترحيب بي في سريركِ في الوقت المناسب».

لم تُجب آنا على ذلك، لكنّها ابتسمت وهي تقطع اللّحم في طبقها وتغمسه بالصلصة اللذيذة قبل أن تضعه في فمها.

أخذ أوليڤر يرقب كلّ حركة تقوم بها، وعندما وقعت نقطة من الصلصة على ذقنها، مدّ يده بسرعة ليمسحها بإصبعه بحركة مثيرة واعدة.

حدث بسيط، إلاّ أنّه ظلّ يداعب مخيّلة آنا لما تبقّى من النهار. في الواقع، كان هذا اليوم من أمتع الأيام التي أمضتها آنا منذ وقت طويل.

بعد الغداء ذهبا في نزهة في السيّارة ولم يعودا إلى المنزل إلاّ بعد حلول الظلام. كانت آنا تضحك من دعابة أخبرها إيّاها أوليڤر، وتتساءل في الوقت نفسه إن كانت قادرة على الانفصال عنه عندما يحين وقت النوم. فقد أمضيا اليوم وقتاً رائعاً معاً بحيث أنّ فكرة الابتعاد عنه لم ترق لها.

لكنّ ابتسامتها تلاشت عندما شاهدا سيّارة الشرطة متوقّفة أمام المنزل. نزل أوليڤر مسرعاً وتوجّه نحو المنزل وهو يقول: «ما الذي يحدث هنا؟».

لحقت به آنا بسرعة وقد تملّكها شعور غريب مقلق.

وجد أوليڤر وآنا السيّدة غرين تتحدّث إلى شرطيّين في المطبخ. كانت فناجين الشاي وبعض قطع البسكويت والحلوى المنزليّة لا تزال أمامهم على الطاولة.

تكلّم أوليڤر وهو ينقل نظراته المتسائلة من الواحد إلى الآخر: «ماذا يجري هنا؟».

أجابه أحد الشرطيّين: «السيد أوليڤر لانغفورد؟».

ـ هذا صحيح.

ـ الأمر يتعلّق بالسيدة روزماري لانغفورد.. والدتكَ حسبما أظن؟

ضاقت عينا أوليڤر وقال: «أعتقد أنّه من الأفضل أن نتحدّث في المكتب».

أرادت آنا أن تلحق بهم، لكنّها لم تشعر بأنّ لها الحقّ في ذلك، لذا بقيت مع مدبّرة المنزل.

ـ ماذا يريدان؟ هل قالا لكِ؟

التوت شفتا السيّدة غرين وأجابت: «لم يقولا لي. لقد وصلا إلى هنا منذ خمس دقائق فقط. وراحا يتذوّقان ما أعددته من البسكويت والحلوى، حتى أنّ أحدهما طلب منّي الوصفة ليعطيها لزوجته».

ـ هل تعتقدين أنّ خطباً ما ألمّ بالسيدة روزماري؟

ـ لا أستطيع الجزم.

بدا من ملامح السيّدة غرين أنها لا تبالي بما قد يحل بروزماري. فهي لم تكن تكترث لتلك السيّدة أو تحبّها.

لم يمض وقت طويل قبل أن يخرج أوليڤر ويرافق الرجلين إلى الباب. فتوجّهت نحوه مباشرة وسألته: «ما الخطب؟ هل والدتكَ مريضة؟».

أجابها أوليڤر بحدّة: «لا. إنّها في قسم الشرطة، لقد تمّ توقيفها».

اتسعت عينا آنا من الصدمة: «ماذا؟ ما السبب؟ ماذا فعلت؟».

صمت أوليڤر وانقبضت أساريره وهو يفكّر بما عليه أن يقوله. فقاطعته موضحةً: «لا بأس. إنّه أمرٌ خاص بك. وإن كنتَ لا ترغب في إطلاعي عليه، فـ...».

ـ أريد أن أطلعكِ عليه، وكنتُ أتساءل عن الطريقة. لكنّي أرى أنّ ما من طريقة لفعل ذلك تجنبني وضع نفسي في موقف حرج.

قطبت آنا جبينها: «عمَّ تتكلم؟».

ـ روزماري هي من سرق المجوهرات.

ـ أوه!

لسبب ما، شعرت آنا بالوهن في قدميها فتمسّكت بالكرسيّ خلفها. لا عجب في أنّ أوليڤر تردّد في إخبارها، فلا بُدّ أنه شعر بشدة غبائه.

ـ هل تعتقد أنّها أخذتها في الليلة التي أمضتها هنا؟ بعد الجنازة؟

ـ لا. فقد رأيتُ المجوهرات في الخزنة بعد ذلك.

ـ إذن، كيف قامت بذلك؟

أجابها بامتعاض وحزم: «هذا ما أنوي اكتشافه قريباً. سأذهب إلى قسم الشرطة الآن، لا أعلم كم من الوقت سأبقى هناك. لا تنتظريني».

إلاّ أنّ آنا لم تستطع الخلود إلى النوم قبل أن تعرف ماذا حدث. وعندما عاد أوليڤر أخيراً إلى البيت، كانت متقوقعة على كرسيّ في غرفة الجلوس وهي تُمسك بكتاب مفتوح في يدها رغم أنّها لم تقرأ فيه.

كانت في المقابل غارقة في أحلام اليقظة، تفكّر في مستقبلهما. فبعد شهر من الآن، سيحلّ عيد الميلاد.. أوّل عيد ميلاد يمضيانه سويّاً. لن ينتقلا من المنزل في ذلك الوقت، لكنّهما في السنة القادمة، سيكونان في كوخهما الجديد مع طفلهما الذي سيشتريان له الهدايا، بعد أن تُصبح كلّ آلامهما ومشاكلهما جزءاً من الماضي.

بدا الإنهاك والتعب على أوليڤر وقد فوجيء برؤيتها مستيقظة في

انتظاره قالت له: «هل أُعدّ لك فنجاناً من الشاي الساخن؟ لقد أوت السيّدة غرين إلى فراشها».

هزّ أوليڤر رأسه: «لقد أمضيتِ يوماً طويلاً ومتعباً، ألا يجدر بكِ أن تأوي إلى فراشكِ أيضاً؟».

ـ لم استطع الخلود إلى النوم من دون أن أسمع ماذا حلّ بروزماري. هل أُثبتت التهمة عليها؟

ـ لا.

كانت شفتا أوليڤر منقبضتين حزينتين وهو يرتمي على إحدى الأرائك. ثمّ مدّد رجليه بتعب ووهن وألقى رأسه إلى الخلف محدّقاً في السقف بشرود، وقال: «لم أستطع أن أدعهم يفعلون بها هذا».

لأنّها في النهاية والدته بالطبع! فسألته آنا: «لقد أطلقوا سراحها إذن؟».

ـ نعم.

ـ وهكذا انتهت القضيّة؟ هل استعدتَ مجوهراتكَ؟

ـ ليس بعد، لكنّي سأفعل.

ـ هل تكلّمت مع روزماري؟

ـ بشكل مقتضب. سأراها مجدّداً في الصباح.

ـ كيف تمكّنت من الدخول إلى المنزل؟ هل تسلّلت إلى الداخل ونحن نعمل في الطابق العلويّ؟

ـ لا أعرف التفاصيل بعد. كلُّ ما أعرفه هو أنّي لم أستطع أن أدعهم يسجنونها. الله وحده يعلم السبب. لم تؤدِّ لي أيّ خدمة في حياتها، لكن...

أجابته آنا بهدوء ورقّة: «هذا لأنّك رجل شريف ومحترم، يا أوليڤر لانغفورد».

استقام في جلسته وأخذ يحدّق فيها: «هل تعنين هذا حقاً؟».

قالت كأنّما الأمر أدهشها هي أيضاً: «أعتقد ذلك. إلاّ أنني لن

أستعجل الأمور بعد».

ـ أنا أفهم ذلك.

كانت ملامحه تعكس مزيجاً من الأسى والأمل. وقف على رجليه واتجّه نحوها، ثم أمسك بها لتقف بدورها واحتضنها بقوّة وشغف، فبديا كصديقين يواسيان بعضهما بعد طول غياب.

أغمضت آنا عينيها لتدع الدفء المنبعث منه يتسلّل إلى أعماقها، والقوّة التي تتحلّى بها ذراعاه تحتضنها بشدّة والعطر الرجوليّ المألوف يتغلغل في روحها ودمها.

كان احتضانه لها وجيزاً لحسن حظّها، لأنّ الشرارة بدأت تستعر في كيانها منذرة بالاشتعال في أيّ لحظة.

همس لها وهو يملس خصلة شعر متمرّدة تغطّي جبينها: «اذهبي إلى فراشك الآن، يا آنا. أتمنّى لكِ نوماً هنيئاً، حبيبتي».

أرادت أن تسأله إن كان سيذهب إلى فراشه هو أيضاً، لكنّها أحجمت عن ذلك مخافة أن يظنّها تدعوه إلى غرفة نومها. فاتجهت نحو الباب ثم استدارت لتبتسم له ابتسامة حزينة: «أنا آسفة بشأن والدتك».

في اليوم التالي، عندما ذهب أوليڤر لرؤية روزماري، استغلّت آنا الفرصة لتذهب إلى المنزل الكبير وتلقي نظرة أخيرة.

كانت أغراض إدوارد الشخصية قد وضبّت، بعد التخلّص من كلّ ما لا يلزم. وأصبح كلّ شيء جاهزاً لإتمام البيع. شعرت آنا بحزن غريب أمام فكرة انتقال هذا المنزل إلى عائلة أخرى غير عائلة لانغفورد.

غير أنّها تتفهّم رغبة أوليڤر في عدم الاحتفاظ به. فذكريات طفولتها هي كانت ملأى بسعادة لا مثيل لها، بحيث لم تستطع تصوّر أي أب يعامل ولده كما كان يفعل إدوارد مع أوليڤر.

لا شكّ أنّه يغرق في ذكريات طفولته التعسة كلّما أتى إلى هنا. إنّها قادرة على الإحساس بألمه وبمعاناته. لكنّه، ألم يتسبّب لها بالألم والمعاناة أيضاً؟ هل يحتفظ في نفسه بنواحٍ شبيهة بوالده تطفو وتظهر

مكشّرة عن أنيابها بين الحين والآخر؟ هل عليها أن تلتزم جانب الحذر دائماً؟

سمعت وقع خطواتٍ خلفها، ولم تفاجأ أبداً عندما رأت ميلاني في الباب.

ـ كنتُ أتساءل عمّن عساه يكون هنا، أملتُ في أن أجد أوليڤر.

حدّقت آنا بالشقراء باستهزاء: «آسفة لتخييب أملكِ».

ـ هل هو معكِ؟

ـ لا.

ـ هل هو في العمل؟

لم يكن لدى آنا أيّ نيّة في إطلاع ميلاني على مكان تواجد أوليڤر في هذه الأثناء. فقالت لها: «في الواقع، لديه بعض الأعمال الواجب إنجازها. هل أردتِ رؤيته لأمر محدّد؟ هل أقول له إنّكِ اتّصلتِ به؟».

فخاطبتها ميلاني بعدائيّة واضحة: «أريد أن أعرف السبب الذي يدفعه لبيع هذا المنزل. لماذا لم يخبرني بما يخطّط له؟ لطالما تساءلت عما يدفعه إلى توضيب كلّ أغراض العمّ إدوارد، لكنّي ظننتُ أنّه ينوي الانتقال إليه بنفسه... أراهن على أنّك تقفين خلف كلّ ذلك. أراهن...».

قاطعتها آنا بحدّة وثبات: «ميلاني، ليس لي علاقة بالأمر البتّة. كان ذلك قرار أوليڤر، إن كانت لديكِ مشكلة في ذلك، فأقترح عليكِ أن تسأليه هو».

ـ أوه، هذا ما أنوي فعله. لا تظنّي أنّ زواجك أصبح من الممكن إنقاذه. فقد أخبرني بأنّه لا يطيق صبراً على الطريقة التي تتحاملين بها عليه.

ـ هل هذا صحيح؟

تساءلت آنا عمّا يمكن أن تفعله ميلاني لو عرفت بحملها. وشكرت السماء على أنّ الوقت لا يزال مبكراً وأنّ الحمل لا يظهر عليها بعد، فأجابتها ببرود تام: «أجيبيني إذن يا ميلاني، إن كان هذا ما يشعر به أوليڤر

نحوي، فلمَ لحق بي؟».

هزّت ميلاني كتفيها باستهزاء: «هذا هو أوليڤر. في الواقع، ما من رجل يحبّ أن تهجره المرأة وتتخلّى عنه. فهم يفضّلون أن يهجروها أوّلاً».

ـ آه، فهمتُ الآن. شكراً لكِ على إخباري. سأحتفظ بهذه المعلومات في ذهني في المرّة القادمة التي أقرّر فيها الرحيل. وسأقول له إنّك سألت عنه. إلى اللقاء يا ميلاني.

نفضت الشقراء شعرها الطويل إلى الخلف بعصبيّة وحدّة وهي تخرج من الغرفة ومن ثم من المنزل. ارتجفت آنا وهي تفكّر: «ألن تتقبّل هذه الفتاة الحقيقة وتقتنع بها؟».

عندما عاد أوليڤر كان قد مرّ وقت طويل على موعد الغداء. وقد ظنّت آنا أنّه سيتّجه إلى المكتب مباشرة بعد مقابلة روزماري، وأقنعت نفسها بأنّها لن تراه مجدّداً حتى المساء. لم تكن مستعدة لتحمّل ذاك الدفق الغزير من الدفء الذي أحاط بها.

هل يعود السبب إلى تعليقات ميلاني القاسية، أم إلى العناق الذي أصابها البارحة بالدوار، أم إلى أنّها قد بدأت فعلاً تسامحه؟... لم تكن متأكّدة من أيّ من تلك الاحتمالات. لكن أيّاً يكن السبب، فإنّ لهفتها إليه تشابه تلك التي كانت تختبرها في الأيام الأولى من زواجهما.

ولا بدّ أنّ ذلك ظهر جلياً على وجهها، لأنّ أوليڤر حدّق بها بتردُّد قبل أن يأخذها بين ذراعيه: «كدتِ تبدين مسرورة لرؤيتي».

لم يحاول أوليڤر أن يعانقها مرّة ثانية، بل اكتفى باحتضانها بطريقة لا يمكن أن يظهرها إلاّ رجل غارق في الحبّ حتى أذنيه.

ـ أنا مسرورة حقاً. أريد أن أعرف ما جرى.

ـ هل هذا كلّ شيء؟

بقي ممسكاً بيديها، وابتعد عنها مسافة ذراع واحد لينظر إليها عن كثب، وابتسم قائلاً: «قبل كلّ شيء، أخبريني عن حالكِ. في الواقع، يا

سيّدة لانغفورد، بعد أن تخلّصت من الغثيان الصباحيّ، تبدين أكثر إشراقاً يوماً بعد يوم».

ـ أشعر بحال جيّدة. ذهبتُ إلى المنزل الكبير هذا الصباح، إن لم يكن لديكَ مانع؟

ـ على الإطلاق. هل جاءنا المزيد من الراغبين في الشراء؟

ـ لا. أردتُ فقط أن أُجيل النظر فيه وأتخيّلكَ هناك في طفولتك...

وضع إصبعه بلطف على شفتيها: «دعينا لا نتكلّم عن ذلك الآن».

ـ جاءني زائر وأنا هناك.

ـ من؟

ـ ميلاني.

ارتخت يداه على جانبيه بتعب وكلل: «ماذا تريد؟».

ابتعد عنها وذهب ليقف بجانب الموقد حيث النار مشتعلة.

ـ أرادت أن تراك.

ـ لأيّ سبب؟

ـ ليست لديّ أيّ فكرة. قلتُ لها إنّي سأبلغكَ بزيارتها.

ـ حسناً، هذا جيّد. سأتولّى أنا الأمر.

تكلّم أوليفر بنبرة واقعية، كما لو أنّه سيتولّى أمر صفقة أعمال أو ما شابه. لكنّ آنا لم تتوقّف عن التساؤل في نفسها عمّا تعني له ميلاني في الحقيقة، وإلى أيّ مدى؟

جلست آنا وقد لفّت ساقيها تحتها في زاوية إحدى الأرائك، وقالت له: «أخبرني عن روزماري».

ارتمى أوليفر على إحدى الأرائك، لكنّه لم يستطع استعادة الهدوء. فانحنى إلى الأمام، شابكاً يديه أمامه وهو يحدّق في رسم على السجّادة.

إنّ اتّهامه لآنا بسرقة ميراث العائلة قد تسبّب له بقدر كبير من الألم والأسى والندم. أما الآن، وقد باتَ متأكّداً بما لا يقبل الشكّ من براءتها، فإنّ آلامه تضاعفت آلاف المرّات. أنّى له أن يواجهها بعد الآن من دون أن

يشعر بالأسى ممّا تسبّب لها من مهانة وحزن؟ وكيف تُراه يستطيع يوماً التعويض عمّا فعله؟

أجاب باختصار: «لقد سرقت مفتاحاً. كان والدي من النوع الذي يلتزم بعاداته؛ فيحتفظ بالمفاتيح كلّها في المكان نفسه الذي كان يستعمله منذ ثلاثين سنة خلت. ومن ثمّ، طلبت مساعدة ميلاني لتخرجنا نحن الاثنين من المنزل».

ـ أوه، كان ذلك في اليوم الذي ذهبتُ فيه لرؤية كريس. في اليوم الذي...

توقّفت فجأة، غير قادرة على الاستمرار، فأكمل أوليفر عنها: «في اليوم الذي ظننت فيه أنك حصلتِ على الفرصة لسرقتها. نعم، أعلم ذلك... كيف تمكّنتُ من إفساد الأمور إلى هذا الحدّ، يا آنا؟».

ـ أعتقد أن استنتاجك كان منطقياً وطبيعياً.

كيف لها أن تظهر هذا القدر من التفهُّم بعد الطريقة التي عاملها بها؟ اعترفت لنفسها بأنّها لم تتوصّل بعد إلى مسامحته كلياً على ما فعله، لكنّها من دون أدنى شكّ، بدأت تشعر بالضعف أمامه شيئاً فشيئاً.

أقرّ أوليفر بنبرة حزينة: «لا، لم يكن استنتاجاً طبيعياً البتّة، بل أشبه بإطلاق النار من دون النظر إلى الهدف وتحديده. إنه الجنون بعينه».

ـ من المفترض أنّنا نناقش موضوع روزماري وليس موضوعي أنا. ماذا كانت ردّة فعلها حين قلت إنّك لن ترفع دعوى ضدّها؟ آمل في أنّها كانت ممتنّة لك كما تستحقّ.

ـ لا أعتقد أنّها ظنّت أن الأمور ستصل إلى حدّ اتهامها. فقد انشغلت في إقناع رجال الشرطة بأنّ المجوهرات هي حقّ لها، لأنّها لا تزال زوجة إدوارد قانونياً.

ـ وهل نجحت في ذلك؟

ـ ليس حين قلتُ إنّه لم يترك لها فلساً واحداً في وصيّته وإنّهما منفصلان منذ ثلاثين سنة خلت. غير أنّي لم أستطع تركها تدخل السجن،

رغم كرهي لها. طالما أنّي سأستعيد الأغراض المسروقة، لن أتابع القضيّة.

ـ إنّها محظوظة جداً.

هزّ أوليڤر كتفيه بانهزام: «يُدهشني أن أشعر بالأسى من أجلها. لقد ارتكبت خطأً جسيماً عندما رحلت وتخلّت عن والدي وعنّي، وأظنّها قد أدركت ذلك الآن. فهي اليوم لا عائلة لها، بل حفنة من الأصدقاء، إن كانت تعتبرهم كذلك، وهي ليست بالصورة الجميلة المرضية والمشرّفة لامرأة بمثل سنّها».

ـ إذن، أرادت التأكّد من حصولها على نصيب من الميراث، أليس كذلك؟

ـ أعتقد ذلك.

ـ هل كانت تخطّط لبيع المجوهرات؟

ـ نعم.

ـ أعتقد أنّي أشعر بالأسى من أجلها أيضاً.

خطر لأوليڤر أن آنا رائعة جداً. فوحده الشخص النقيّ، الصافي القلب، يمكنه أن يسامح امرأة تسبّبت له بهذا القدر العظيم من الأذى والألم بشكل غير مباشر. أراد بشغف الذهاب إليها واحتضانها، وإبقاءها بين ذراعيه إلى الأبد.

لكنّ عليه توخّي الحذر، وعليه التقدم خطوة خطوة بتأنّ وحكمة.

قال لها: «أخبرتها عن المنزل الجديد. وقلتُ لها إنّنا نرحّب بزيارتها لنا في أيّ وقت تشاء».

رفعت آنا حاجبيها بدهشة: «كان هذا لطفاً وكرماً بالغين منك».

التوت شفتاه بامتعاض: «إنّها والدتي في النهاية».

ـ معظم الرجال كانوا سيديرون لها ظهرهم ويتخلّون عنها، خاصة بعد الحادثة الأخيرة.

ـ ربّما كنتُ لأفعل ذلك في ما مضى. لكنكِ من علّمني وجعلني أدرك

أنّ التسامح ممكن دائماً، مهما يكن الجرم عظيماً.

لم تُجب آنا ولم يلمها على ذلك. بل وقفت قائلة: «سأطلب من السيّدة غرين أن تعدّ لنا فنجاناً من الشاي. هل تناولت غداءك؟ لدينا حساء دجاج شهيّ جداً...».

قاطعها فجأة: «لا أشعر بالجوع. سأكتفي بالشاي أو بالقهوة... أيّاً يكن ما ستحضّرينه».

ابتسمت له آنا: «فنجان من الشاي بالنعناع إذن؟».

تأوّه وهو يصفّق بيديه بمرح ويربتُ على جبينه لأنّه نسي أنّها أقلعت عن تناول الشاي العادي الآن. فأجابها: «لا، ليس بالنعناع، من فضلك. سأشرب القهوة».

عندما خرجت من الغرفة، رجع إلى الوراء وأسند ظهره إلى الكرسيّ وأغمض عينيه. لقد أجهده الحديث الذي أجراه مع روزماري، لكنّه كان مسروراً لأنهما توصّلا إلى نوع من التفاهم والاتّفاق. لم يشأ البقاء قريباً منها، إذ لم يشأ أن تستغلّه، لكن، من ناحية أخرى، ما من أمّ في العالم تستحقّ الجفاء والبرود من ابنها، مهما فعلت.

في الحقيقة، لم يكن قادراً على استحضار صورتها من ذاكرته بوضوح أيّام طفولته. فهو لا يذكر سوى صورة ضبابيّة غير واضحة المعالم... كانت تفوح منها رائحة جميلة، ويبرق في أذنيها قرطان جميلان... هذا كلّ شيء. إنّ سلوك والده هو الذي أبقاه في حالة نفور تامّ وامتعاض منها. والآن، وقد رحل إدوارد، فما الهدف من البقاء بهذه العدائية؟

لكنّ أفكاره لم تدر في فلكِ والدته لوقت طويل. فآنا هي التي تشكّل همّه الأوّل ومدار اهتمامه، آنا والطفل. لم يكن قادراً على وصف ما خامره من أحاسيس لعلمه بأنّه سيصبح أباً.

سبق أن قال أوليڤر لآنا إنه يودّ الذهاب معها لحضور دروس ما قبل الولادة وما بعدها، لكنّه في الواقع أراد أن يتعلّم المزيد.

هل الابوة شيء طبيعيّ وغريزيّ؟ لعلّ كتاباً يشرح كيفية الاعتناء

بالأولاد سيكون مفيداً؟

ـ بمَ تفكّر؟

لم يسمع آنا تدخل الغرفة مجدداً. ففتح عيناً واحدة ثم أغمضها بسرعة بعد أن قال: «كيف يصبح الرجل أباً».

ـ هل تظنّ أنّه أمر غير جدير بالتفكير؟

ـ إنّه يخيفني حتى الموت.

ـ وأنا أيضاً.

فتح عينيه على الفور ونظر إليها قائلاً: «ليس لديكِ ما تخافين منه. سأكون إلى جانبكِ في كلّ خطوة من هذه المرحلة».

لم يُصدّق أوليڤر سعادته عندما اقتربت منه آنا وجلست بقربه. إنّها المرّة الأولى التي تأتي إليه فيها بكامل إرادتها، فانحبست أنفاسه من شدّة السرور واضطرّ مرغماً على عدم التعمّق في فهم تلك الخطوة والذهاب بعيداً في تحديد دلالاتها.

قالت تهمس له برقّة: «أعلم أنّك سترعاني وتهتمّ بي، يا أوليڤر».

ـ ما دمتُ حيّاً.

وبقيا جالسين هكذا في صمت وهدوء. كان خائفاً من تخطّي الحدود التي رسمتها له فاكتفى باحتضانها برقّة وحنان، وتمنّى ألاّ تشعر بتجاوب جسده معها وهي ملتصقة به هكذا. لم يعلم إلى متى يستطيع الاستمرار بلعب دور النبيل معها، غير أنّه لم يرد أن ينهار أوّلاً.

شعرا بنوع من الارتباك المرّ عندما دخلت السيّدة غرين تحمل لهما شرابيهما. فانفصلا عن بعضهما بسرعة وبنوع من الشعور بالذنب.

لم تقل المرأة شيئاً، لكنّ ابتسامتها كانت مشرقة وهي تنظر إليه: «ها هو شرابكَ، مع الكعك بالفاكهة المفضّل لديك».

ثم خرجت وهي تتراقص في خطواتها من فرط سعادتها.

قالت آنا: «إنّها تظنّ أنّنا عدنا إلى سابق عهدنا».

ـ يا لها من فكرة جميلة.

ـ لكنّها سابقة لأوانها. هل تريد قطعة من الكعك، يا أوليڤر؟

انتهت تلك اللحظات الفاصلة، وبدأت المرحلة الانتقالية مع الشروع بتلك الخطوة الأولى. لن تدعه يتخطى الحدود، لكنه أحسّ بالأمل ينير حياته وطريقه ثانية.

* * *

www.elmamoura.com

١٠ ـ متى يأتي الغدّ؟

مدّ أوليڤر يده قائلاً: «يسرّني أن ألتقي بك أخيراً».

صافح الرجل الآخر يده بحزم وثبات: «أنا أيضاً. كنتُ قد بدأت أظنّ أن ذلك لن يحدث أبداً».

حدّق أحدهما بالآخر بطرف عينيه، كانا رجلين فارعي القامة عريضي المنكبين وسيميّ الطلعة، أحدهما أشقر الشعر والآخر أسوده. حدّقت آنا بأوليڤر، فلم تجد أيّ أثر للشكّ في ملامحه. بدا في غاية السرور للقاء شقيقها، وعرفت من الدفء المنبعث من ابتسامته أنه يرحّب بكريس من دون أي تحفّظ.

قالت والحماس يغلب على نبرتها: «يسرّني أنا أيضاً أن تلتقيا أخيراً. لقد أمضيت وقتاً طويلاً جداً وأنتَ بعيد عن الديار يا كريس».

هزّ رأسه بمرح: «بإمكانكِ دوماً الاتّصال بي، يا أختي، يجب أن تعلمي هذا. كان عقداً كبيراً واتفاقاً هاماً ذاك الذي أجريته في فرنسا، لا يمكنني إهمال ذلك».

علّق أوليڤر قائلاً: «بالطبع لا. فالأعمال هي الأعمال، ماذا تودُّ أن تشرب؟ عصير طازج أم شاي أم قهوة؟».

ـ فنجان من القهوة من فضلك، من دون سكّر.

رقّت عينا أوليڤر وهو يلتفتُ إلى آنا يخاطبها: «وكوب من المياه المعدنية لكِ، يا آنا؟».

ـ من فضلك.

ـ هل أخبرتِ أخاكِ بالنبأ السعيد؟

ابتسمت وأومأت برأسها بسعادة، فقال كريس: «سبق أن قدّمتُ لآنا تهانيّ الحارة، وأعربتُ لها عن سعادتي من أجلكما معاً».

أجابه أوليڤر: «نحن سعداء، أيضاً. إنّ هذا أفضل ما يمكن أن يحدث لنا».

نظر إلى آنا وهو يتكلّم، فغمرها فيض من السعادة الخالصة.

ـ أخبرني فريق المبيعات في شركتي أنّ حملتك الإعلانية واهتمامك بأدق التفاصيل يعكسان سياستك الحكيمة في العمل، وها هي أعمالك الآن تزدهر نتيجة لذلك، يا كريس. أنت رجل شجاع.

ـ من دون الكرم الذي غمرتني به شقيقتي آنا، ما كنتُ لأتمكّن قطّ من النجاح هكذا، ومن إنقاذ أعمالي.

سحب مغلفاً من جيبه وناوله لآنا، قائلاً: «لديّ شيء لكِ، يا آنا. إنّه شكّ بكامل المبلغ الذي أقرضتني إياه. كنتُ سأنتظر حتى المساء لأعطيكِ إياه. لكن، بما أننا نتحدّث عن الأعمال، أعتقد أنّ عليكِ الحصول عليه الآن».

قالت آنا بهدوء: «شكراً لك. ما من داعٍ للعجلة».

كانت تفضل ألاّ يفعل أخوها ذلك أمام أوليڤر، لكنّها عرفت أنّه تعمّد ذلك. وشعرت بأن كريس يحاول حمل أوليڤر على الاعتذار مجدّداً.

ونجحت محاولته. فقال أوليڤر ضاحكاً باقتضاب: «إنّك تجعلني أشعر أنّي أحقر رجل في العالم، يا كريس. من المؤسف أني لم ألتقِ بك عندما تزوّجنا أنا وآنا. كنتُ سأعرف عندها أنّ ما من شيء يدعوني للقلق، لقد ظننتكَ خطيب آنا السابق».

رفع كريس حاجبيه: «توني؟ لقد رأيته ذلك اليوم، هل أخبرتكِ بذلك، يا آنا؟ لقد تزوّج أرملة شابة وثريّة. كان زوجها يمتلك سلسلة كبيرة من المتاجر. لم يكن لديه أقارب، فأصبحت هي بوفاته المالكة الثريّة الوحيدة. لا بدّ أنّ توني يعيش حياته الآن كما أحبّ دائماً».

شعرت آنا بأنّ أوليڤر يرقب ردّة فعلها، لكنّها ضحكت وهي تقول: «إذن، فقد حصل على المال من دون أن يعمل لأجله. هذا رائع. إنّه شخص آخر يعلّق أهمية كبرى على المال، لا يجب أن يتدخّل ذلك في العلاقات الإنسانية. أنا أعرف عندما التقيتُ...».

تردّدت قليلاً وهي تنظر إلى أوليڤر من تحت جفونها، فاستدركت قائلة: «إنسَ أنّي قلت ذلك. ليس الأمر مهماً».

قطّب كريس جبينه وهو ينقل نظراته بينهما، وقال: «هل فاتني شيء ما هنا؟ ظننتُ أنّ الأمور أصبحت بأفضل حالٍ بينكما مجدّداً».

- ليس تماماً. فشقيقتكَ تلعب دور «صعبة المراس» هذه الأيّام.

- مع وجود طفل قادم قريباً؟

ضحكت آنا بخفّة وأجابت: «هذا يجعل الحياة متجدّدة ومثيرة. هلاّ ذهبنا إلى غرفة الطعام؟ أنا متأكّدة من أنّ السيدة غرين قد جهّزت لنا كل شيء».

كان كريس عازماً على اصطحاب صديقته الجديدة معه الليلة، لكنّها لم تتمكن من المجيء في اللحظة الأخيرة. لذا، وجدت آنا نفسها بمفردها مع الرجلين. منذ أسابيع خلت، كان تحقيق ذلك مستحيلاً، لكنّ آنا شعرت بأنها تتقرب أكثر فأكثر من أوليڤر حتى أوشكت على مسامحته.

توشك على ذلك، لكنّها لا تزال غير متأكّدة.

في الأسبوع المقبل سيحلّ عيد الميلاد. ولعلّ أفضل هديّة تقدّمها في مثل هذه المناسبة هي أن تسامحه نهائياً وإلى الأبد.

ابتسمت للفكرة وشعرت بتيّار كهربائي يمرّ عبر أوصالها. هل بإمكانها الانتظار حقاً؟ إنّ ما تشعر به الآن يجعلها توشك على الارتماء في حضنه ما إن يغادر أخوها المنزل. أرادت أن تعانقه، أن تقبّله...

حدجها أوليڤر بنظرة متسائلة: «تبدين في غاية السرور والرضى من نفسكِ فجأة. هل ستخبريني بما جعل هذه الابتسامة الماكرة ترتسم على وجهكِ؟».

لم يفته شيئاً. كان يراقبها دائماً، حتى عندما لا تكون متنبّهة لذلك.

قالت بخفّة وهي تحاول أن تخفي الوهج الدافىء الذي علا وجهها: «أنا أشعر بالسعادة لوجود أخي هنا، كما يسرّني أنّكما تقابلتما أخيراً. من المؤسف أنّ «لورا» لم تتمكن من المجيء. يجب أن نراها في فرصة أخرى، يا كريس».

وظلّت السعادة والحماس يغمرانها طيلة الوقت. فقد انسجم أوليڤر وكريس جيداً، ممّا جعلها تدركُ أنّ عقبات زواجها ومشاكله كانت لتُحلّ في وقت مبكر جداً لولا المشاكل المالية التي تعرّض لها كريس.

من ناحية أخرى، كانا هي وأوليڤر قد اكتسبا الآن ثقة أحدهما للآخر. فالظروف الجيّدة والسيّئة التي مرّا بها كانت بمثابة دروسٍ قيّمة يحفظانها من كتاب الحياة الكبير.

عندما غادر كريس أخيراً، جلسا هي وأوليڤر في غرفة الجلوس. كانت تلك غرفة آنا المفضلة بأرائكها الوثيرة المريحة وموقدها الجميل، حتى أنّها تحبّ الجلوس فيها في فصل الصيف بسبب المنظر الرائع الذي تطلّ عليه.

أرجعت رأسها إلى الوراء، وقالت: «يسرّني أنكما اتّفقتما جيّداً أنت وكريس».

- إنه رجل مستقيم وبالغ الذكاء. لكان من العار أن تسوء أعماله وتنهار.

- هذا ما كنتُ أفكّر فيه.

جعلت تُراقبه بعينين نصف مغمضتين. لقد كان خلاّباً ومثيراً... لم يتغيّر فيه أيّ شيء. كلّ النفور والامتعاض اللّذان سيطرا على مشاعرها لوقت طويل بدآ بالتلاشي والزوال سريعاً. إنّها تريده بكلّ خليّة نابضة في جسدها، تريده إلى حدّ التألّم. لمَ الانتظار حتى عيد الميلاد؟ لمَ الانتظار لسبعة أيّام كاملة؟ لمَ الاستمرار في تعذيب نفسها؟

من جهة أخرى، فإنّ الأمر يستحقّ الانتظار. ستدخل إلى غرفته صباح

عيد الميلاد وتندسُّ في سريره. سيكون ذلك بمثابة هديّة سيذكرها لما تبقى من حياته.

ـ أنا فخور بكِ لأنّك وفيتِ بوعدكِ لأخيكِ.

حدّقت به وعيناها الخضراوان مشدوهتان في تساؤل: «هل هذا صحيح؟».

ـ بالطبع. فلم يكن الأمر سهلاً البتّة.

ـ آه، بإمكانك التأكيد على ما تقول.

ـ خاصة أنّ ذلك الوعد عرّض زواجنا لخطر الانهيار.

ـ كنتُ في الواقع سأقول لك لو أنّك لم تُهنّي بالتدقيق في حسابي المصرفي والتسرُّع بإطلاق الاستنتاجات والاتّهامات. كان ذلك بغيضاً جداً، يا أوليفر.

اعترف أوليفر بذلك: «أعلم ذلك. لكنّ والدي كان مقتنعاً بأنّك تزوّجت بي من أجل المال. أردتُ أن أثبت له مدى خطئه، لذلك قمتُ بالتدقيق في حسابكِ المصرفيّ. فجنّ جنوني عندما اكتشفتُ أنّ المال ولّى واختفى».

مرّر أصابعه في شعره وغطّى جبينه براحتيه مخفياً وجهه عنها لشعوره بالخجل والنفور من نفسه. وأضاف: «لم أرَ سبباً يدفعكِ لسحب المبلغ بكامله. والحقيقة أنّي لم أفكّر بشكلٍ سويّ».

فقالت بثقة: «إذاً، كان إدوارد مجدّداً هو من وضع العراقيل أمام زواجنا. كان عليَّ أن أخمّن ذلك. لا بدّ أنه تجسس عليَّ طيلة الوقت، في بحثٍ دؤوب عن أيّ شيء يحقّرني في نظرك. وقد نجح في ذلك بامتياز».

ـ أنا آسف حقاً.

استطاعت آنا أن ترى في عينيه الألم والحزن يسطعان بشدّة. فقالت: «أنا أيضاً».

ـ هل سامحتني؟

ابتسمت آنا وهي تفكّر بخبث في عيد الميلاد، وقالت: «إنّي أسير

باتّجاه ذلك».

ـ هل اقتربتِ بما يكفي لتُعطيني قبلة المساء؟

انتفض قلبها وهو يحثّها راجياً على القبول، فابتسمت قائلة: «يمكنني تدبُّر ذلك».

ـ إذن، تعالي إلى هنا.

وقفت آنا وراحت تتقدم نحوه ببطء، كأنّه يجرّها بحبل خفيّ، لتقصّر المسافة بينهما رويداً رويداً. امتدّت ذراعاه تحملانها برفق إلى حضنه. ثم احتضنتها هاتان الذراعان بقوّة وتملُّك، فرفعت رأسها لتنظر في بريق عينيه الذهبيّتين.

لم تكن إرادتها هي ما يُسيّرها، فألفت نفسها راغبة في المزيد، في أكثر من مجرّد عناق...

لكن آنا قرّرت التوقُّف فجأة، فهي تستطيع الانتظار لبضعة أيّام أخرى، وسيسهم ذلك في زيادة توقها إليه. كما سيفيده هو أيضاً أن يتملّكه القلق لفترة أطول.

ـ سآوي إلى الفراش الآن، يا أوليفر.

لم يجادلها أو يمسك بها، لكنّه بدا تعيساً جداً. وعلمت آنا أنه، بالرغم من صبره اللامتناهي ومن اعتذاراته المتكرّرة، يعاني بشكل يثير الشفقة، وأنّها، إن بالغت في القسوة عليه، ستجعله يظنّ أن الأمر لا يستحقّ كلّ هذا العناء، فيلغي كلّ ما اتفقا عليه.

لعلّ الانتظار حتى الميلاد ليس بالفكرة الجيّدة في النهاية. لعله الآن... لكنّه وقف ليساعدها على النهوض، قائلاً: «في هذا الوقت، تكونين عادة قد آويت إلى فراشك. ما الذي أفكّر فيه؟ ليلة سعيدة، حبيبتي... وأحلاماً هانئة».

ـ ليلة سعيدة، يا أوليفر.

اقتربت منه ثانية وقبّلته بطريقة عفوية لم تُظهرها منذ وقت طويل. وعندما استلقت في سريرها بعد فترة وجيزة، راحت الشكوك تُساورها

وتقلق راحتها.

لقد دفع أوليڤر ثمن غلطته. آن الأوان لكي تسامحه وتنسى، وترحّب به في سريرها مجدَّداً، إذ يبدو بارداً وخاوياً من دونه.

إنَّ أسبوعاً كاملاً إضافياً من النوم وحيدة في هذا السرير، سيكون بمثابة قصاص لها وليس لأوليڤر.

في اليومين التاليين، كانت منشغلةً بالتسوّق لعيد الميلاد، وتزيين الشجرة التي أجبرت أوليڤر على شرائها، وإنجاز كلّ الترتيبات الخاصة بالميلاد. فكانت في كلّ ليلة، ترتمي على سريرها كجثة هامدة من شدّة الإنهاك. ولم يطلب منها أوليڤر شيئاً ولم يلقِ اللوم عليها لانشغالها عنه، ممّا ساعدها على إتمام مهمّاتها.

ظنّت آنا أن أوليڤر سيحاول الضغط عليها والتأثير في دفاعاتها. لكنّه اكتفى على العكس بقبلة عاديّة كلّ ليلة، قبلة لم تعنِ شيئاً على الإطلاق، قبلة خيَّبت آمالها... إن لم نقل أثارت حفيظتها بعضَ الشيء.

قبل يومين من ليلة الميلاد، كان أوليڤر مرتبطاً بعشاء عمل، فقال لها:

ـ قد أتأخّر في العودة، فلا تبقي مستيقظة بانتظاري.

كانت تلك ليلة أخرى تمّ تولّي أمرها.

وفي الليلة السابقة ليوم الميلاد، قامت ميلاني بزيارتهما، وأحضرت معها هديّة لأوليڤر واستثنت آنا. لم تمانع تلك الأخيرة، فهي أيضاً لم تشترَ شيئاً لميلاني، وفوجئت عندما قال أوليڤر للفتاة بأنّ معه شيئاً لها.

قال: «إنّه في الطابق العلويّ، سأذهب لإحضاره».

بعد ذهابه، اقتربت ميلاني من النار تُدفىء يديها، وقالت: «لقد أمضينا وقتاً رائعاً على العشاء في الليلة السابقة. هل أخبركِ أوليڤر بذلك؟».

تعمّدت ميلاني التكلّم بنبرة عادية، إلاّ أنّ آنا شعرت كما لو أنّها تلقّت ضربة على معدتها، كما لو أنّ الهواء قد سُحب من رئتيها، وأوّل ما خطر

لها أن تشكر السماء على امتناعها عن الذهاب إلى سرير أوليڤر حتى الآن.

أما ما خطر لها تالياً فهو أنّها لا تستطيع إلقاء اللوم على أوليڤر لارتمائه في حضن ميلاني، في حين لم تعطه ما هو بحاجة إليه. هذا ما أجاب عن تساؤلها حول الصبر الذي أظهره أوليڤر في الفترة الأخيرة.

ثم خطر لها ثالثاً أنّها يجب ألاّ تدع ميلاني ترى مدى الألم الذي سبَّبته لها.

ـ بالطبع، أخبرني أوليڤر بذلك.

أملت آنا أن تكون قد تكلّمت بنبرتها العاديّة. في الحقيقة، شعرت بصوتها يرتجف بعض الشيء، لكنَّ ميلاني لن تلحظ ذلك بالتأكيد.

ـ ذهبنا بعد العشاء إلى منزلي. وأوليڤر...

ـ ميلاني!

خبا لون ميلاني وشحب وجهها عندما تعالى صوت أوليڤر عند الباب، وأضاف: «ما الذي تقولينه بحقّ الجحيم؟».

التفتت ميلاني ببطء لتواجهه، لكنّها لم تجرؤ على النظر إلى عينيه مباشرة. فسألها: «هل هكذا تتكلمين مع زوجتي ما أن أُدير ظهري لكِ؟».

هزَّت الشقراء كتفيها بصمت خجول. فخاطب آنا: «آنا؟».

لكنّها لم تُرد التدخُّل بينهما، فلزمت الصمت هي أيضاً.

ـ صدقيني يا آنا، ليس هناك أيّ شيء بيني وبين ميلاني. لا شيء... منذ وقت طويل جداً.

اجتاز الغرفة ليصل إلى آنا ويحيطها بذراعه، ويضيف متوجّهاً إلى ميلاني هذه المرة: «هذه زوجتي، يا ميلاني، وأنا أحبّها إلى حدّ الجنون. أريدكِ أن تتذكّري هذا دائماً. مهما يكن ما حدث بيننا في الماضي، فقد انتهى وولّى إلى غير رجعة، منذ زمن بعيد، وإن كنتِ ستأتين إلى هنا للتسبُّب بالمشاكل والإيقاع بيني وزوجتي، فأنا أفضّل ألاّ تأتي إلى هنا ثانية».

علا احمرار الغضب وجه ميلاني، ودون أن تنبس ببنتِ شفة،

استدارت وخرجت من الغرفة، ومن ثم من المنزل.

فذكّرته آنا بهدوء: «لم تقدّم لها هديّتها».

ـ إنّها لا تستحقّها. هل تتكلم معكِ بهذه الطريقة غالباً؟

ـ فقط كلما تقابلنا.

تأوّه وهو يشد عليها بذراعيه قائلاً: «لم تكن لديّ أيّ فكرة عمّا يحدث. آمل أنّك لا تصدقينها لأنّ كلامها ليس فيه ظلّ من الحقيقة».

ـ كنتُ أصدّقها في السابق.

ـ كان فعلاً عشاء عمل. لا أعلم كيف عرفت ميلاني بأمره.

ـ أنا أصدقك.

ـ آه آنا. حبيبتي آنا. كم تحمّلت من هفوات وأخطاء؛ أنا آسف حقاً. ما من شيء يجمعني بميلاني منذ وقت طويل. شعرتُ بالواجب نحوها بعد وفاة والدي، إكراماً له، هذا كلّ شيء. لا أظنّني أحببتها حقاً ذات يوم... ليس كما أحبكِ أنت.

آن الأوان.

تردّد ذلك في رأس آنا بوضوح تامّ.

حان الوقت لإخبار أوليفر.

ما من سببٍ يدعو للانتظار حتى الغد.

الآن هو الوقت المناسب.

***

١١ ـ الهدية

أصاب أوليفر الذهول واعتمل الخوف في صدره وهو واقف يستمع إلى أكاذيب ميلاني. كلّ ما استطاع التفكير فيه هو ما قد يفعله ذلك في آنا، وما قد يحدثه من شرخٍ كبير في علاقتهما التي لا تزال غير مستقرّة ومهدّدة بالانهيار في أيّ لحظة.

حاول جاهداً خلال الأسابيع الماضية الحرص على حُسن سير الأمور. كان الامتناع عن الاقتراب من آنا والتزام الحذر والصبر يقتلانه، في الوقت الذي أراد فيه أن يمسك بها بعنفٍ ويحبّها حتى الموت، روحاً وجسداً.

كانت قاعدة «لا تلمسني» التي وضعتها آنا تُصيبه بالجنون. وكم من مرّة كاد يفقد السيطرة على نفسه ويسألها إلى متى سيستمرّ حرمانه المؤلم منها. فلم يوقفه شيء إلاّ خشيته من إفساد الامور مجدّداً، وحرصه على الوفاء بوعده لها.

لكن، إلى متى يُطلب من الرجل الانتظار؟

وحين احتضن أوليفر آنا بذراعيه، أخذ جسده يلتسع بشرارات شرسة محرقة، ولم يشأ إفلاتها. أهذه ليلة أخرى يمضيها في السرير وحيداً؟ ليلة أخرى تضجّ بالأحلام المزعجة؟ ليلة أخرى يستيقظ بعدها صباح عيد الميلاد من دون أن يجد أحداً إلى جانبه؟

أنّى له أن يحتمل ذلك؟

همست آنا في أذنه: «أوليفر، أرغب في أن أقدّم لك هديّة الميلاد

www.elromancia.com

الآن. أتنتظرني هنا إلى أن أُحضرها؟».

ابتسم لها قائلاً: «بالطبع، لكنّي ظننتُ أنّنا سنضعها كلّها تحت الشجرة، و...»

- إنها جزء من الهديّة، ليس إلاّ.

- إن كان هذا ما تريدينه.

فجأة، بدت متعطّشة ومتلهّفة، والبريق الأخضر يسطع في عينيها، وشفتاها تنفرجان في إثارة واعدة. آه، كم تبدو جميلة ومثيرة! إنّها الآن كالصورة التي رآها فيها عند لقائهما الأوّل.

كانت حيويّتها قد خبت في الفترة الأخيرة وغابت عن ملامحها لتحلّ الجديّة والشرود محلّها. يا لها من سعادة كبيرة أن يراها الآن كسابق عهده بها.

أخذ أوليفر يتساءل عن الهديّة التي لم تستطع الانتظار حتى الغدّ لتقدّمها له. بدت غاية في الحماس بحيث أنّه لم يشأ صدّها أو خذلها إن لم تعجبه تلك الهديّة، أيّاً تكن، فيكفيه أنّها من اختيار آنا.

وقف مديراً ظهره للنار وقد وضع يديه خلفه ليدفئهما. فسمع وقع خطواتها الرشيقة الخفيفة وهي تنزل السلالم قبل أن يُفتح الباب أمامه. بعد ذلك، وقف مشدوهاً بعد أن خانته كلُّ كلمات العالم وخانته أنفاسه.

جلّ ما كانت ترتديه هو ثوب للنوم من الساتان الأحمر الشفّاف البالغ القصر مزيّنٌ بجوانب من الدانتيل الذهبيّ اللون. وقد لفّت شعرها وعقدته في أعلى رأسها بشريط أخضر وآخر أحمر، وانتعلت حذاءً أخضر عالي الكعبين، تمتدّ منه الشرائط الذهبيّة لتلتفّ على ساقيها.

بدت أخّاذة ومغرية إلى حدّ الجنون وهي تتهادى نحوه بخطى مغناجة، وعيناها الخضراوان تحدّقان بعينيه بنظرات واعدة ماكرة. راح قلبه يخفق بعنفٍ في صدره الذي بدأ يعلو وينخفض وهو يحاول عبثاً التقاط أنفاسه المضطربة. لكنّه تسمّر في مكانه لا يقوى على الحراك.

لقد سلبت لُبّه هذه المرأة الفاتنة وشلّت تفكيره وهي تصل إليه وتلفّ

ذراعيها حول عنقه بإغواء وتتلفّظ بالكلمات التي ظنّ أنّه لن يسمعها ثانية في حياته: «أوليفر، أنا أحبّك وأسامحك. أنا الآن مستعدة لأن أكون زوجتكَ، بكلّ ما للكلمة من معنى».

ابتلع ريقه بصعوبة: «أنتِ هي هديّتي؟».

- إن كنتَ تريدني.

- إن كنتُ أريدكِ؟

هذا ما لا يكتنفه أيّ شك على الإطلاق. فقد كاد يموت من شدّة ما أرادها. فقال: «آه، آنا... آنا، إنّها أجمل هديّة أتلقّاها في عيد الميلاد على الإطلاق».

وانخفض رأسه ليعانقها وهو يشعر بدوار لذيذ. وهذه المرّة، سقطت الحواجز وكلُّ الاعتبارات الأخرى.

راح أوليفر يعانقها بحميميّة وشراهة، يطالب بما أنكرته عليه لوقت طويل. يطالب تارّة بحدّة وشراسة وتارة أخرى بحنان ورقة.

شعرت آنا بيديه ترتجفان وهما تلامسان جسدها، وتتردّدان كما لو أنّ الشكّ لا يزال يساوره. لم يكن بحاجة للتردد بعد الآن، فهي الآن ملكه ما دامت حيّة، وأرادت طمأنته: «أنا أحبّك حقاً، أوليفر... أحبّك جداً جداً».

أغمض عينيه من شدّة السعادة، ثم رفع رأسه ثانية لينظر إليها بعينين ذهبيّتين دافئتين: «هل سامحتني حقاً؟».

- نعم. وإن استمريتُ في إضاعة الوقت، فلن أعذّب إلاّ نفسي.

- آه، آنا. لا تعلمين كم كنتُ أتوق لسماع هذه الكلمات منكِ. إنّه أجمل يوم في حياتي.

فهمست له بدلال هادىء ناعس: «لنذهب إلى الفراش».

سطعت عيناه برغبة جامحة: «هل أستطيع أن أحمل هديّتي في عيد الميلاد إلى السرير؟».

- نعم.

ـ وهل أستطيع الاحتفاظ بها في سريري طوال الليل؟

ـ نعم.

ـ إذن، لنذهب من دون إضاعة المزيد من الوقت.

حملها بين ذراعيه وأخذ قلبه يخفق بتوتر وهو يصعد بها السلالم إلى غرفة نومه. واستطاعت آنا أن تشعر بحرارة جسده الملتهب.

كان الأمر مختلفاً الآن، مختلفاً عمّا عرفاه سوياً في الماضي. فهما الآن متحابان أكثر من أيّ وقت مضى، ولم يعد ما يجمعهما رغبة جسدية خالصة، بل رغبة مُزجت بكلّ مشاعر الحب والعطاء الخالصة.

سألته آنا: «هل أعجبتكَ الهديّة؟».

ـ هل أعجبتني؟ يا له من سؤال!

ـ كنتُ سأنتظر حتى الصباح، لكنّي فجأة لم أعد أقوى على الانتظار.

ـ هذا يسرّني. فلم أكن راغباً في الاستيقاظ صباح عيد الميلاد، وزوجتي نائمة في غرفة أخرى. أعتقد أنّي كنتُ سأدخل غرفتكِ وأجعلكِ تسامحيني بالقوة.

ـ يسرُّني أنّنا عدنا أصدقاء من جديد، أوليفر.

ـ الليلة، لستِ بصديقتي. بل أنتِ زوجتي وحبيبتي، وهديّتي في عيد الميلاد! هديّتي الجميلة الساحرة، الحامل بطفلي.

بقيا مستيقظين طيلة الليل كأنّهما يعوّضان ما فاتهما لوقت طويل. لكنّ الإنهاك ألمَّ بهما، وهدهد جفنيهما النُّعاس، فاستسلما له أخيراً، وغطا في نوم عميق هادىء.

وعندما استيقظا، كان الثلج يُسدل ثوبه الأبيض في الخارج. مسحت آنا جزءاً من زجاج النافذة براحة يدها وهي تقول لأوليفر: «أنظر. أنظر، أوليفر. أليس هذا رائعاً؟».

ـ أرى أنّك الرائعة حبيبتي. لم أكن لأسامح نفسي على ما فعلتُ أبداً.

ـ ألا يقول بعض الأمثال إنّ الحبّ هو الذي يغلب في النهاية وينتصر؟ أعتقد أنّي في الحقيقة لم أتوقّف يوماً عن حبك.

ـ وأنا كذلك. تعالي إلى هنا، آنا، ودعيني أثبت لك هذا.

لم يكن من داعٍ لإقناعها. ولو لم تكن السيدة غرين ستحضّر لهما عشاء الميلاد، لأمضى أوليفر وآنا ما تبقى من اليوم في سريرهما.

* * *

www.elromancia.com

١٢ ـ بعد مرور سنتين

كان أوليڤر مستلقياً إلى جانب آنا في السرير، فوضع يده على بطنها المنتفخ وقال: «أعتقد أنّ علينا الذهاب في شهر عسلٍ قبل أن يُطلّ طفلي الثاني برأسه».

ابتسمت آنا ببطء: «آه، أظنّني سأُسعد بذلك. إلى أين سنذهب؟».

ـ إلى أحد الأمكنة النائية. إلى إحدى الجزر، حيث كلّ ما عليكِ القيام به هو الاستلقاء طيلة اليوم والتمتّع بالكسل التامّ.

ـ لا أستطيع تصوّر نفسي كسولة.

كانا قد انتقلا إلى المنزل الجديد قبل ولادة بيتر، طفلهما الأوّل. وبالرغم من أنّ السيّدة غرين تبذل بكلّ ما في وسعها لتأمين الراحة لهما، إلاّ أنّ آنا كانت تحبّ أن تقوم بمعظم الأشياء بنفسها.

كانت تحبّ الاعتناء بطفلها الحبيب وبزوجها الرائع ورعايتهما. وكانت القشعريرة تلمّ بجسدها كله كلما خطر لها أنّها كادت تفقده يوماً. وقد أحبت بالطبع منزلها الجديد.

عندما بلغ بيتر ستّة أشهر من العمر، قاما بإضافة مُلحق إلى الكوخ، إذ أن روزماري ستأتي للعيش معهما.

لقد تغيّرت والدة أوليڤر، فمواجهتها مع الشرطة وكرم أوليڤر غير المتوقّع، دفعاها إلى إعادة التفكير والتأمّل في كل شيء. وهي الآن سيدة محترمة رزينة قبلت في النهاية الاعتراف بأنّ الحياة أغنى وأهمّ بكثير من

كلّ المال في العالم.

قالت آنا وهي تداعب وجنتي أوليڤر براحة يدها: «أتعلمُ أين أودُّ الذهاب؟».

ـ العالم كلّه ملك لكِ، يا حبيبتي. فقط حددي المكان.

ـ إلى كوخ شقيقتي. كنا سعداء جداً هناك، أوليڤر. سيكون المكان مثالياً لقضاء شهر عسل. والآن، والدتك هنا، وأنا متأكدة من أنها ستساعد السيّدة غرين في رعاية بيتر.

ـ أعتقد أنّك محقّة. إنها تحبّ الصغير حباً جمّاً. وهي تقول إنّه يذكّرها بي عندما كنتُ في مثل سنّه. لا أظنّ أنها تريد أن تفوتها طفولته كما حدث لها معي.

سطع بريق أخضر في عينيها وهي تسأله: «إذن، فقد سُوِّيت المسألة؟».

ـ إن كان هذا ما تريدينه حقاً.

ـ هذا ما أريده أكثر من أي شيء آخر في العالم... و... أوليڤر، شكراً لحبّك الكبير لي.

ـ آه، لا. أنا من عليه شكركِ لأنّك منحتني فرصة أخرى لأثبت لكِ حبّي. وقد نجح ذلك، أليس كذلك؟

أومأت آنا برأسها: «أكثر ممّا كنتُ أتوقّع يوماً. أنا أسعد امرأة في العالم أجمع».

فأجابها والابتسامة الراضية تعلو وجهه: «وأنا... أسعد رجلٍ على وجه الأرض».

***